أحمد الجدع

أبو سفيان بن حرب

من الجاهلية إلى الإسلام

الناشر : مؤسسة الشرق للنشر والترجمة

أحمد الجدع

أبو سفيان بن حرب

من الجاهلية إلى الإسلام

الطبعة الأولى ١٩٨٣ م
الناشر : مؤسسة الشرق للنشر والترجمة
ت : ٤١٨٣٢٩ ـ ٤١٢٠٩٢
ص .ب : ٤٢٤٤ ـ تلكس : ٤٧١٥ د . هـ
الدوحة ـ قطر
انتاج : مؤسسة الشرق للعلاقات العامة

ABU SOFIAN FROM PRE-ISLAM TO ISLAM
1st edition : 1983
Publisher : Orient Publishing & Translation
Tel : 418329, 412092
P.O. Box : 4244, Telex : 4715 O P R DH
Doha-Qatar
Produced by : Orient Public Relations

بسم اللہ الرحمن الرحیم

المقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد :

عندما تنزلت رحمة الله تعالى على العالمين ، وأذن الله بختم الرسالات السماوية بسطوع نجم سيد المرسلين ، وقف العرب من الدعوة مواقف متباينة ، فمنهم من آمن ، ومنهم من عاند ، ومنهم من استأنى ، ولم تكد تمرُّ على الدعوة عشرون سنة حتى كان العرب في جزيرتهم قد أوعبوا مع الدعوة ، ودخلوا في دين الله أفواجاً .

وشاء الله أن يكون هؤلاء العرب مادة الإسلام الذين انطلقوا معه وبه فغرسوا في الأرض الإيمان ، ونشروا في الكون الهدى .

وقدر الله لقريش أن تكون أول قبيلة تسمع بالدعوة وتُدعى إلى التوحيد ، فاستجاب منها أول الأمر من شاء الله له أن يظفر بشرف السبق ، ثم توالى المستجيبون سنة بعد أخرى ، فلم تمض من حياة الدعوة عشرون سنة حتى كانت قريش كلها قد دخلت الإسلام .

وكان مما أكرم الله به قريشاً أنّ من قُتل منها كافراً بالله ورسوله عدد قليل بلغ من قلته أن المؤرخين تمكنوا من حصر أولئك النفر بأسمائهم .

وإن من أكثر الناس حظاً بالإفلات من الموت وهو متلبس بالكفر زعيم قريش وقائدها في حربها لجبهة الإيمان ، أبو سفيان بن حرب ، فإنه لم يزل منذ بُعث رسول الله - ﷺ - وهو له معاند ، ولدعوته محارب ، حتى فُلَّ حدُّه

وغُلب جنده ، فدخل الإسلام في أول أمره مسلماً لرسول الله بالهزيمة الحربية والسياسية ، ولم يزل رسول الله - ﷺ - يتألفه على الإسلام حتى خضع له ودان به .

* * *

ولاقى أبو سفيان من بعض مؤرخي الإسلام فتوراً عندما ترجموا له ، ولاقى من بعضهم الآخر إعراضاً فأهمله فلم يترجم له ، ولعل القارىء يعجب معي كيف أهمل صاحب الطبقات الكبرى ، محمد بن سعد ، ترجمة أبي سفيان مع أنه ترجم لأولاده وبناته !

ولعل موقف كثير من المسلمين من أبي سفيان ومن كثير من الصحابة ممن أسلموا متأخرين ، أو ممن رأوا منهم مواقف لم يوافقوهم عليها يحتاج إلى تصحيح وتوجيه ، إذ أن هؤلاء يريدون من جميع الصحابة - رضوان الله عليهم - أن يكونوا جميعاً مثل أبي بكر وعمر أو مثل عثمان وعلي . . . وأنى لهم ذلك ، والصحابة لم يكونوا كلهم سواء أكان ذلك في المواهب الفطرية أو في الاستعدادات النفسية أو في درجة الإيمان وحدود الالتزام .

فإذا فهمنا هذا وأدركناه استطعنا أن ندرس الصحابة - عليهم رضوان الله - ونتفهم مواقفهم وتصرفاتهم ، واستطعنا أيضاً أن نتعامل مع الدعاة المعاصرين ومع رجالات الإسلام ممن يتطلع إليهم الجيل الجديد كقادة وموجهين ويأملون أن يسيروا وراءهم لنصرة الحق الذي من أجله يجاهدون .

* * *

ولأن أبا سفيان كان القائد الذي واجه الرسول وكانت جبهته جبهة الشرك التي واجهت جبهة الإيمان ، فإن الروايات التي تناولت سيرته اكتنفها كثير من التناقض مما يجعل من يتناولها بالدراسة في موقف صعب وبخاصة إذا أراد أن يرجح رواية على أخرى أو أن يصدر حكماً في موقف معين ، ولعلنا حين

نضرب الأمثال على ذلك التناقض نوضح ما عانيناه في تحليل هذه الروايات وفي ترجيح إحداها على الأخرى ·

وهذا مثال من تلك التناقضات يقف بنا حائرين أمام حدث يعتبر من أهم أحداث الإسلام غب وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد روت لنا كتب التاريخ والسير أن أبا سفيان كان واليا للنبي ـ عليه السلام ـ على نجران ، وأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مات وأبو سفيان والٍ عليها ، والواقدي ينكر ذلك ويقول : أصحابنا ينكرون ولاية أبي سفيان على نجران حين وفاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ويقولون : كان أبو سفيان بمكة وقت وفاة النبي ـ ﷺ ـ ، وكان عامله على نجران يومئذ عمرو بن حزم .

وهناك رواية أخرى تقول بأنه كان في المدينة المنورة وقت وفاة النبي وأنه لما علم بمبايعة الناس لأبي بكر ذهب إلى علي فحرضه على العصيان قائلاً : أغلبكم على هذا الأمر أقل بيت في قريش ، أما والله لأملأنها عليه خيلاً ورجلاً إن شئت ، فيرد عليه علي ـ رضي الله عنه ـ قائلا : ما زلت عدواً للإسلام وأهله ، ماضرّ ذلك الإسلام وأهله شيئا ، إنا رأينا أبا بكر لها أهلا .

وهكذا وجدنا أن أبا سفيان كان عند وفاة النبي في نجران ومكة والمدينة في وقت معا !

ومثال آخر أشد تناقضاً ذلك الذي يرويه المؤ رخون عن موقفه في معركة اليرموك ، فقد روي عن سعيد بن المسيب أنه روى عن أبيه قوله : فُقدت الأصوات يوم اليرموك إلا صوت رجل يقول : يا نصر الله اقترب ، قال : فنظرت فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد .

وروي عن وهب بن كيسان عن ابن الزبير قال : كنت مع أبي عام اليرموك ، فلما تعبى المسلمون للقتال لبس الزبير لأمته ثم جلس على فرسه وتركني ، فنظرت إلى ناس وقوف على تل لا يقاتلون مع الناس ، فأخذت فرساً ثم ذهبت فكنت معهم ، فإذا أبو سفيان في مشيخة من قريش ، فجعلوا

إذا مال المسلمون قال أبو سفيان : إيه بني الأصفر ، وإذا مالت الروم قال : يا ويح بني الأصفر ، وينشد :

وبنو الأصفر الملوك ملوك الروم لم يبق منهم مذكور

وفي نهاية الرواية أن ابن الزبير حدث أباه بذلك بعد انتهاء المعركة بنصر المسلمين فقال : قاتله الله ، يأبى إلا نفاقاً ، أو لسنا خيرا له من بني الأصفر ؟

وهذا الخبر وأمثاله مما يروى عن مواقف أبي سفيان المعادية للإسلام جعل صاحب الاستيعاب يعبر عن حيرته فيقول : وله أخبار رديئة ذكرها أهل الأخبار ولم أذكرها ، وفي بعضها ما يدل على أن إسلامه لم يكن سالما ، ولكن حديث سعيد بن المسيب (في اليرموك) يدل على صحة إسلامه والله أعلم .



وكان أبو سفيان سيداً مطاعاً في قريش ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا بأنه كان السيد الذي لاتردُّ له كلمة في مكة ، وأن حكمه فيها كان ماضياً على السادة قبل العامة ، وأن الناس في مكة كانوا يقرون له بالسيادة والشرف والسؤدد(١) والأمثلة التي نسوقها دليلاً على ذلك إن هي إلا قليل من كثير وغيض من فيض ؛ فقد أرسل ملك اليمن بعشر جزائر إلى مكة وأمر أن ينحرها أعز قريش ، فوصلت الجزائر بينما كان أبو سفيان عروساً بهند بنت عتبة ، فقالت له عرسه هند : لا يشغلنك النساء عن هذه المكرمة التي لعلها أن تفوتك .

فقال لها أبو سفيان : يا هذه ، دعي زوجك وما يختار لنفسه ، والله ما نحرها أحد غيري إلا نحرته !

---

(١) كان معاوية كثير الفخر بأبي سفيان ، وكان مما قاله في ذلك : قد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها إلا ما جعل الله لنبيه ﷺ فإنه انتخبه وأكرمه ، وإني لأظن أن أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازماً . الكامل حـ٣ ص ١٤٢ .
ومما وصف به أباه قوله : كان أبو سفيان طويل الأناة بعيد القعر نائم الهوى يقظان الرأي . البصائر مجلد ٣ قسم ١ ص ٣٠٠ .

ويقيت الجزائر معقولة لا يقربها أحد إلى أن أنهى أبو سفيان يومه السابع مع عرسه ، فخرج ونحرها !

وعندما عاد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الطائف وقد لاقى من أهلها صداً ونفورا مما أطمع قريشاً فيه فعزمت على إيذائه ، دخل مكة في جوار المطعم بن عدي ، وهو أحد السادة في مكة ، فخرج المطعم بأولاده وقد أخذوا سلاحهم وأحاطوا برسول الله يحرسونه حتى يطوف بالكعبة ، ففزع القرشيون لذلك ، وظنوا أن المطعم وآله قد أسلموا ، فجاء أبو سفيان إلى المطعم وقال له : أمجير أم متابع ؟

قال المطعم : بل مجير

قال أبو سفيان : إذن لا تُخفر !

وهكذا نرى أن إجارة المطعم لم تمضها قريش حتى أقرها أبو سفيان

ولعل ما حدث لسهيل بن عمرو ، وهو أيضاً من السادة في مكة ما يدل على السيادة المطلقة لأبي سفيان ، فقد قُتل رجل من ذوي سهيل يدعى أبو بصير العامري ، فغضب سهيل وأسند ظهره إلى الكعبة وقال : والله لا أؤخر ظهري عن الكعبة حتى يودى هذا الرجل •

ولما حضر أبو سفيان ـ وكان غائباً ـ وسأل عن شأن سهيل وصنيعه بنفسه وأُخبر بالذي حدث وبالذي قاله سهيل ، قال : والله إن هذا لهو السَّفه ، والله لا يُودى !

وذهب دم الرجل العامري هدْرا ولم يستطع سهيل أن يفعل شيئا !

ألا تستحق هذه الشخصية النافذة في مجتمع مكة أن تلقى منا التفاتاً واهتماماً فندرسها ونضع نتائج هذه الدراسة أمام القارئين من المسلمين ؟

* * *

ونشأ أبو سفيان في قوم هم أهل الفصاحة والبيان ، ففيهم نزل القرآن الكريم ، قمة الفصاحة والبيان ، وبلغتهم كُتب وتُلي ، ولهم وجِّه التحدي •

فهل ينزل القرآن إلا على قوم يفهمون معناه ويطربون لموسيقاه ويدركون مغزاه ، وهل ينزل الله القرآن إلا بلغة وصلت قمة النمو وغاية السمو ؟ وهل يتحدى الله بالقرآن أناساً إلا إذا كانوا قد أدركوا من الفصاحة غايتها ومن البيان ذروته ؟

لقد حاز أبو سفيان مما وهبه الله لهؤلاء القوم من فصاحة وبيان قسطاً وافرا ، فقد كان ذواقة يطرب للقول البليغ والشعر الفصيح ، وكثيرا ما كان يسترق السمع حول بيت الرسول ليسمع القرآن فيلتذ لسماعه ، وكثيرا ما أبدى إعجابه لما يسمع ، وله أراء فيما كان يسمعه من الشعر ، وكان يعجبه الإسهاب في موضعه (١) وله فوق ذلك خطب جياد وشعر حسن ، ويمتاز حديثه بالبلاغة مع الوضوح والسهولة ، وقد حرصنا في عرضنا لسيرته على أن نأتي بكل ذلك في موضعه حتى يطالع القارىء هذا الجانب من شخصية الرجل الذي قاد المعارضة الساخنة للدعوة الإسلامية في أحرج أوقاتها وأدقها ٠

* * *

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يود لو أن أبا سفيان أسلم فيسلم بإسلامه من كان من قريش معاندا ، وعمل رسول الله في مناسبات كثيرة على تأليف قلبه حتى قبل إسلامه أملاً منه في إسلام الرجل ، وطمعاً في الفائدة المرجوة من وراء إسلامه ٠

فقد روي أن أهل مكة أسنتوا في السنة الخامسة للهجرة ، ولم يقدروا على إصدار لطائمهم (تجارتهم) بسبب حربهم مع المسلمين ، فأراد النبي ـ عليه السلام ـ تأليف قلوبهم فأهدى إلى أبي سفيان تمر عجوة وأرسلها مع عمرو بن أمية الضمري إلى مكة ، وكتب إليه يستهديه أدما فأهداها إليه أبو سفيان ٠

فانظر كيف كان رسول الله يتألف قريشاً كلها بإهداء أبي سفيان ، وانظر

(١) قال أبو سفيان لعبد الله بن الزبعري الشاعر : لو أسهبت ؟ ، قال ابن الزبعرى : حسبك من الشعر غُرَّة لائحة أو سمة فاضحة ٠ انظر ٠ البصائر والذخائر المجلد الثاني ٠ القسم الثاني ص ٣٠٢

إلى محاولته ـ عليه السلام ـ تقريب أبي سفيان من الاسلام بالمهاداة .

واستمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في تأليف أبي سفيان على الاسلام حتى بعد أن أعلن إسلامه ، واستخدم رسول الله في ذلك التأليف وسائل متنوعة ، فتألفه بإشباع رغبته الجامحة إلى السيادة فأضفى عليه ألفاظها : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، كل الصيد في جوف الفرا ، وتألفه بإغداق الأموال عليه وعلى أولاده ، فأعطاه وأعطى ولديه يزيد ومعاوية من غنائم حنين ما أنطقه بالثناء على رسول الله وهو الذي بقي مزوراً عن ذلك حتى أنطقه العطاء ، وتألفه بالمساعدة على الظهور أمام العرب بمظهر السيد الكريم وهو الذي عرفه القريب والبعيد بالشح حتى على أهله ، فقد روي أنه أطعم الناس فى حجة الوداع فقصر طعامه فأعانه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بألف شاة ، فاهتز أبو سفيان لهذا الكرم النبوي الفياض فقال : بأبي أنت وأمي ، حاربناك فما أجبنّاك ، وسألناك فما أبخلناك (١)

فهذه الشخصية التى يتابعها الرسول ـ عليه السلام ـ بالتأليف على الإسلام في أثناء الصراع وبعد انتهائه أليست جديرة بأن تلقى منا الاهتمام الذي تستحقه ، وأليست جديرة أيضاً بأن تُكتب فيها الكتب وتدور حولها الدراسات ؟

* * *

وأبو سفيان الذي لقي من الدارسين القدامى فتوراً وإهمالاً كما قلنا من قبل لقي مثل ذلك وأشدّ منه لدى الدراسين المعاصرين ، فإننا لا نكاد نجد اهتماماً بسيرته إذا حاولنا أن نطالع ترجمته في كتب الطبقات المعاصرة ، ولعل الاهتمام الوحيد كان مكانه في دائرة المعارف الإسلامية حيث تناوله

(١) انظر البصائر والذخائر مجلد ٢ قسم ٢ ص ٧٧٨

المستشـرقـون الحـاقـدون بشيء من التفصيـل ملؤ وه بالـدس الرخيص على الإسلام ورسوله الكريم •

أمـا الكتـابـة عن الـرجـل في كتاب مستقل هادف فلم يصل علمه إليّ إن وجـد ، وأرجـح أن يكـون كتـابي هذا هو الأول عنـه ، وكل ما استطعت أن أجـده لدى غيري من الكتـاب المعـاصـرين صفحـات سريعة وكلمات عابرة وتعليقـات خاطفـة في الكتب التي تنـاولت ابنـه معـاوية في الترجمة المفصلة ، وهي كلمات لا تنقع غلة ، وعبارات لا تشفي غليلا ، •••

أسأل الله تعـالى أن أكـون قد أصبت فيـما كتبت ، وأستغفـره إن كنت أخطأت ، فما أردت من كتابي هذا إلا الخير ••• والله حسبي •

المؤلف

بنو هاشم وبنو أمية

في لحظات سريعة انتشر النبأ في مكة : لقد مات سيد قريش قصي بن كلاب .

وهرع الرجال والنساء والأطفال من سكان بطحاء مكة وظواهرها إلى دار الندوة حيث تجمع الملأ من قريش .

وعندما استيقنوا النبأ ملأهم الحزن وخيّم عليهم الوجوم وفاضت أعينهم بالدموع ، لقد مات الرجل الذي بنى لقريش مجدها وعزها فجعلها سيدة القبائل في جزيرة العرب .

وازدحمت أودية مكة الضيقة بالمشيعين الذين رافقوا جثة قصي إلى مرقدها الأخير ، وسار المشيعون زرافات زرافات ، وكل جماعة تتناول الحدث الكبير من الزاوية التي تهمها ...

فالسادة يتداولون في أمر قريش بعد قصي ، ومن الذي سيكون سيدها المطاع وقائدها الميمون ... فقد اعتادت قريش أن يكون لها سيد ميمون موفق في كل ما يقوم به من أمور.

والشباب يتناولون بالحديث فضائل السيد الراحل وأعماله الجليلة وما قدمه لقريش من خدمات عظيمة .

والنساء يتحدثن عن آمالهن بسيادة الأزواج أو الأبناء بعد الراحل الكبير والأطفال يعجبون من هذا الحشد الكبير من الرجال والنساء حول هذه

الآله الحدباء المحمولة على الأكتاف ، وكل منهم يقول كلمته كما تلقى على لسانه بلا أدنى مبالاة بأولئك الذين يحيطون به ، وربما أطلق أحدهم ضحكة مدوية في هذا الموكب الحزين ولكنه لا يلبث أن يعتر يه الوجوم عندما تستهدفه النظرات العاتبة الزاجرة من الرجال والنساء .

ومضى الموكب إلى مقصده ، وأودعوا قصياً حفرته وأهالوا عليه التراب ثم نفضوا أيديهم وأخذوا ينصرفون إلى منازلهم زرافات زرافات كما جاءوا ... غير أن جماعة منهم لم تنصرف إلى بيوتها بل انقلبت إلى دار الندوة للتباحث فى المهم من أمور قريش بعد قصي ... وهل كان هناك من أمر أهم من زعامة قريش التي خلت برحيل السيد العظيم ؟

عندما وصل هؤلاء السادة إلى دار الندوة وجدوا أمامهم وصية قصي ، فارتاحوا لذلك .. قال أحدهم : لله دره من رجل ، إنه لم يدع الاهتمام بأمر قريش أبدا ، ولا شك أنه أوصى بمن يقوم على شؤ وننا من بعده حتى لا نختلف ونتشاجر فيدب فينا الوهن وتطمع فينا قبائل العرب .

قال قائلهم : فضوا وصية الراحل الكبير لنسمع قوله ونرى فيه رأينا

وكأن هذا الحديث لم يرُق لكثير من الحاضرين ، فقد سرت فى الجمع همهمات ، ثم ارتفعت أصوات تقول : لا رأى لأحد بعد قصي ، إذا رأى قصي رأياً فلا يجوز لأحد أن يستدرك عليه ، الرأي الذي نقبله هو ما يقوله قصي ولا رأي غيره .

قال آخر وكأنه يريد أن يقطع حبل النقاش حتى لا يمتد فيطل الخلاف برأسه ويستشري فلا يستطيع أحد حسمه : دعونا نسمع ما الذي يقوله الراحل الكبير فى وصيته ... فضوا الوصية وأسمعونا الذي فيها .

وساد الصمت .. وفضّ أحدهم الوصية وقرأها ... لقد أوصى قصي لابنه عبد الدار بكل مفاخر قريش : الحجابة واللواء والرفادة والسقاية والندوة.

وسرت بين الحاضرين همسات ما لبثت أن أعلنت عن نفسها ... إن بعض الحاضرين يعترض على وصية قصي !

قال رجل : كيف يترك قصي لعبد الـداركل المكارم ويترك عبد مناف وهو أفضل من أخيه عبد الدار وأجلّ .

وهنا حمي أنف عبد الدار ورد عـلى المتكلم رداً قاسياً عنيفا.

وانـبرى أولاد عبـد مناف : هاشم وعبد شمس ونوفل والمطلب وردوا على عمهم عبد الدار ، وتكرر الكلام والرد ، واشْترك بعض الحاضرين ممن ليسوا من أبنـاء عبـد الـدار أوعبـد مناف في النقاش ، واضطرب المجلس ، وشاع الهـرج والمـرْج ، وانقسم النـاس إلى حزبـين : حزب يتمسـك بوصية قصي ويقـول : كل المكـارم لعبد الدار ، وحزب يرفض الوصية ويرى أن فيها ظلماً يجب أن يُزال.

قال رجـل ممن أيـدوا عبـد الدار : كيف ننقض وصية الرجل المبارك الذي جّمع قريشاً بعد تفرق وجعل لها عزا وشرفاً لا يُدانى ، إنه لأول الوهن ... يا قـوم إنني لا أرى إلا ما رآه سيدنا الراحل ... يجب أن نسلم الزعامة والقيادة لعبد الدار .

قال رجل ممن أيّد عبد مناف : إن هذا لن يكون أبدا ، إن عبد مناف فينا سيـد مثلما كان أبـوه سيـدا ، وإن أبنـاءه للسـادة المنـاجيب ، ولا نرضى أن يضاموا أبدا .

وخرج الناس من دار الندوة وهم على هذا الحال من التفرق ، فأخذ كل فريق يجمـع حولـه الأنصار والمؤيدين ، وانحاز المؤيدون لبني عبد مناف إلى ركن من أركان الكعبة ، وأحضروا جفنة مملوءة طيباً ، ثم غمسوا فيها أيديهم دليـلاً على التعـاقـد والتحـالف الأبدي ، ثم مسحوا أيديهم بجدران الكعبة كأنهم يسجلون هذا الحلف على أقدس مكان عندهم حتى لا يرجع عنه أحد من المتحالفين ... فسمي هؤلاء منذ ذلك الحين بالمطيَّبين .

أمـا بنـو عبـد الـدار ومن حالفهم فقـد انحـازوا إلى ركن آخـر من أركـان الكعبـة ، وأحضـروا جفنـة مملوءة دمـاً ، وغمسـوا أيـديهم فيهـا دليلاً على استعـدادهـم لبـذل الـدمـاء في سبيـل حقهـم الـذي اكتسبـوه بوصية قصي ،

وتعاهدوا على أن لا يخذل بعضهم بعضاً وأن لا يتفرقوا حتى يقرّ بنو عبد مناف ومن والاهم بوصية قصي ... وسموا منذ ذلك الحين بلعقة الدم .

واستعد كل فريق بالسلاح حتى يدافع عما رآه حقه ... وكاد القتال أن ينشب والدماء أن تسيل لولا أن تداعى بعض العقلاء للصلح ، وبعد أخذ وردّ ومشاورات فاؤوا إلى الصلح على أن يأخذ بنو عبد مناف السقاية والرفادة ، ويحتفظ بنو عبد الدار بالحجابة واللواء ودار الندوة .



كانت هذه الحادثة انتصاراً لبني عبد مناف ، إذ استطاعوا أن ينتزعوا من إخوتهم بني عبد الدار بعض الحق الذي أوصى لهم به قصي .

واجتمع أولاد عبد مناف الأربعة : هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل ، وتداولوا فيما حصلوا عليه من مكارم قريش ، وقرروا أن يعملوا ما وسعهم العمل على النهوض بقريش وتيسير أمورها ، فهي في موقع لا ماء فيه ولا شجر ، وفي الوقت نفسه تتحمل عبء الرفادة والسقاية لقبائل العرب التي تقصد مكة حاجة للبيت المقدس فيها ، واتفق الإخوة على الاتصال بملوك الأرض لعلهم يستطيعون أن يصلوا بلدهم بأسباب هؤلاء الملوك فينتفعون بذلك في تجارتهم التي هي عماد عيشهم ، فاتفقوا على أن يذهب هاشم إلى الشام فيتصل بقيصر ، ويذهب عبد شمس إلى الحبشة فيتصل بالنجاشي ، ويذهب نوفل إلى فارس فيتصل بكسرى ، ويذهب المطلب إلى اليمن فيتصل بملوكها من حمير .

وعاد الأربعة من رحلتهم وقد أخذ كل منهم ممن أُرسل إليه عهداً وأماناً لقريش ، فأقبلت الدنيا عليهم ، فنشطت تجارتهم ونمت أموالهم واتسعت آفاقهم ، وصعد نجمهم في الجزيرة العربية كلها ، فعرفت لهم العرب هذا الفضل فأولتهم التقدير والاحترام ، وأسلمت لهم زمام القيادة التجارية إلى جانب القيادة الدينية ، فغدوا بذلك نجوم الجزيرة وشموسها الساطعة .



وكـان هاشم بن عبـد مناف رجل قريش كرماً وجودا ، أفاض على قريش من مالـه الـذي يكتسبـه من التجـارة ، فكـان كلما عاد من رحلة من هاتيـك الرحلات التي كان يذهب بها إلى الشام أغدق على عامة الناس وخاصتهم ، فأخذ الناس يعرفون له هذه المكارم فيذكرونه بها ويذكرونها له .

وكان عبد شمس يرى أخاه هاشماً وقد سطع نجمه وعلا ذكره فيحاول أن يباريه فيما يفعل لينال من حسن السيرة ما يناله ، ولكنه لم يستطع أن يباريه أو يجاريـه ، فدب الحسـد في نفسـه لأخيـه ، ولكنه لم يبده على الملأ ، بل داراه وكبته .. فأصابه من ذلك غم كبير ولحقه من جرائه هم عظيم .

وكـان أميـة يرى هذا التنـافس بين أبيه وعمه ، ويلاحظ ما يلاقيه أبوه من عذاب مكبـوت إذ لم يستطـع أن يصـل إلى المنزلة التي وصلها أخوه ، فيحزن لحزن أبيـه ويأسى لأسـاه ، وتثـور في نفسـه عواصف الغـيرة فيحـاول كبتهـا وتستعـر في نفسـه نيران الحقد فيحاول إطفاءها ولكن إقبال المجد على هاشم فجّر هذه الغيرة المكبوته وأشعل تلك النيران المستعرة .

وعنـدمـا أصـابت قريشـاً سنـةٌ شديدة أذابت الشحم وبرت العظم نهض هاشم فذهب إلى الشـام فاشـترى طعـاماً عظيماً وعاد به إلى مكة وجعل كل ذلـك لقـريش تسـدُّ به خلّتهـا وتطفىء حرّجوعتهـا ، فلهجت ألسُنُ الناس بالمـدح لهاشم ، فلم يطق أميـة أن يرى هذا الشـرف الرفيع الذي كلل جبين عمه ، ولم يستطع أن يحتمل رؤ ية هذا المجد الذي ذهب به دون أبيه ودونه ، فحـاول أن يجاريـه في صنيعـه فلم يستطـع ، وحـاول أن يبـاريه في مجده فلم يقـدر ، عنـد ذلـك شمت به ناس ممن نالـه فضل هاشم ، فأحفظ ذلك أمية فنـال من عمـه في مجلسـه ، وغض من قدره بين الناس ، ولما لم يجبه هاشم ولم يلتفت إليه ، ازداد غضبه وحنقه ، واعتبر ذلك إهانة من عمه له ، فدعا عمه إلى المنـافـره ، فكـره هاشم ذلـك أشد الكره وأعظمه لمقامه في قريش ولقرابة أميـة القـريبـة منه ، ولكن أمية أصر على موقفه وطلب أن يحتكما في هذا الأمر إلى رجـل من حكـماء العـرب أو إلى كاهن من كهنتها ، فأمية يرى أنه أفضل

من عمه هاشم ، ويرى أن قريشاً تُحابي هاشماً وتفضله عليه ظلماً وعدواناً وزورا !

وغدا نبأ المنافرة حديث قريش في مجالسها وبيوتها ، وتطلع الناس ليروا ما الذي ستنتهي إليه هذه المنافرة ، وإن كان سواد بالناس في قريش يعلمون أن هاشماً أفضل من أمية وأكرم ، إلا أنهم يخشون أن يجور الحكم فى رأيه ، وأن يضل الكاهن في حكمه ، فيحكمون لأمية على عمه صاحب السيادة والفضل في قريش كلها .

وكانت شروط المنافرة قاسية ... فعلى من يُهزم فيها أن يدفع خمسين من الإبل لصاحبه وأن يغادر مكة عشر سنين لا يدخلها إلا بعد انقضائها ، وضمن سادة مكة تنفيذ الحكم ، فقد كانت المنافرة أمراً معترفاً به بين قبائل العرب ، ونتائجها وقراراتها تحترمها جميع الأطراف فيها .

واختار المتنافران كاهن خزاعة ليحكم بينهما وينفر أحدهما على الآخر ...

وتدفقت الجموع من قريش وخزاعة على مقرّ الكاهن ، ووقف هاشم وأمية أمامه وطلبوا منه على مسمع من الناس ومشهد أن يحكم بينهما وينفر أفضلهما على صاحبه .

أطرق الكاهن وكأنه يبحث فى الأمر ويفكر فيه ، أوكأنه يستلهم الحكم من تابعه من الجنّ كما كان يزعم الكهنة في ذلك الوقت ... وطال الانتظار بالناس ، وثقل الوقت على هاشم وأمية ... والكاهن غارق في تأملاته ...

وبعد حين رفع الكاهن رأسه ببطء ، فاشرأبت الأعناق وصمتت الأصوات ، وأصغت الآذان لتسمع ما يقول ... وصعد الكاهن حجراً مرتفعاً ليراه من حضر ويسمعه كل من شهد ، ثم صوب نظره إلى أمية ثم نقله إلى هاشم ، وبعد ذلك نظر إلى الجموع المتلهفة لسماعه وقال بصوت حاول أن يضفي عليه الرهبة ليلقي في قلوب السامعين أن ما يقوله حق لا يقبل المناقشة وحكم لا يجوز الرجوع عنه ... قال : والقمر الباهر والكوكب الزاهر والغمام الماطر لقد سبق هاشم أمية بالمفاخر ...

هل انقضّت صاعقة من السماء تحرق كل ما تصل إليه من أخضر ويابس ؟ هل انشقت الأرض أخدوداً رهيباً يبتلع كل ما على الأرض من إنسان وحيوان ونبات ؟ هل ضاقت الأرض حتى لم تعد أجواؤها تفي بحاجة الإنسان إلى الهواء ؟ هل انقلب الناس من بشر ألوفين إلى وحوش مفترسة ضارية ؟ هل بُدلت الأرض غير الأرض والسماء غير السماء ؟

كل ذلك وأشد منه وأقسى ، نزل بأمية عندما نطق الكاهن بحكمه ، فلم يدر ما يفعل ولم يحر ما يجيب ... فأسرع عائداً إلى مكة ... ولم يستطع أن يفعل شيئاً سوى أن يذعن للحكم ... فسلّم الإبل الخمسين لعمه ، ثم حزم متاعه ورحل إلى الشام ليقضي عشرا من السنين العجاف بعيداً عن مكة التي أحبها والتي كان يأمل أن يكون فيها سيداً مطلقاً لا ينافسه فيها أحد من الناس .

أما هاشم فقد أخذ الإبل الخمسين ونحرها ، ودعا قريشا إلى مائدتها ... فكان ذلك اليوم يوم عيد عند عامة الناس وسوادهم في مكة ، وكان غير ذلك عند عقلائها ، فقد علموا أن صفحة من المنافسة والعداء قد فُتحت بين بني هاشم وبني أمية لا يعلم سوى الله مداها ومنتهاها ...

ويبدو أن عقلاء قريش سعوا للتخفيف من وطأة الهزيمة على بني أمية فقرروا أن يعطوهم شيئاً من هذه المفاخر التي استأثر بها بنو هاشم دونهم ، فقرروا أن يسندوا القيادة الحربية لهم ، وبالرغم من الوقع الحسن الذي أحدثه هذا القرار لدي بني أمية إلا أنه لم يكن كافياً لإزالة ما علق في القلوب واستقر في النفوس من تباغض وتحاسد وتنافس بين أبناء العمومة ...

وسرعان ما عاد بنو أمية لاشعال النار الهامدة في حادثة عابرة ... فقد نزل في جوار عبد المطلب بن هاشم رجل يهودي تاجر ذو مال ، فحسد حرب بن أمية ابن عمه على ذلك ، ورأى أن نزول رجل مثل هذا في جوار ابن عمه دليل على تفضيل الناس له ، وأن مثل هذا الحدث يزيد عبد المطلب شرفاً ، ويباعد ذلك ما بين حرب وبين ما يسعى إليه من الزعامة والسيادة وما طلبه من

المجد والشرف ، وعلى الرغم من الصداقة التي كانت قائمة بين عبد المطلب وحرب إلا أن حرباً لم يرع لتلك الصداقة حرمة ولاذمة ، فقد ثارت في نفسه رواسب العداوة السابقة ، فأغرى باليهودي فتياناً من قريش فقتلوه ونهبوا ماله ، وعندما علم عبد المطلب بما حدث لجاره سعى حتى عرف قاتليه ، ولما أراد القبض عليهم استجاروا بحرب فأجارهم ، فطلبهم عبد المطلب منه فاخفاهم ، وألح عبد المطلب في طلبهم من حرب فأبى أن يسلمهم إليه ، فاشتد عبد المطلب على حرب ، فثار بينهما جدال فأغلظ كل منهما لصاحبه ، عندئذ زعم حرب أنه أعز من عبد بالمطلب وأكرم ، وطلب أن ينافره ، فاستجاب عبد المطلب للتحدي ، وطلب من حرب أن يختار الحكم الذي يريد ، فاختار حرب أن يكون الحكم بينهما النجاشي ملك الحبشة ، ولعله اختار النجاشي لتلك العلاقة التي تربط بني أمية به منذ أن أخذ جدهم عبد شمس الأمان منه لقريش .

ووصل وفد المنافرة إلى الحبشة ، فاستقبلهم النجاشي أحسن استقبال ، فقدموا هداياهم إليه ، ثم طلبوا منه أن ينفّر أحد السيدين على صاحبه ، ولكن النجاشي أبى أن يكون الحكم بينهما ، ودعاهما إلى الرويّة في الأمر لأنهما سيدا مكة وشريفا قريش ، فانصرفا من عنده عائدين إلى مكة ، وهناك اختارا نفيل بن عبد العزى العدوي ليكون الحكم بينهما .

واحتشد الناس بباب نُفيل ليروا ما يحكم به في شأن السيدين ومن ينفر على الآخر ، فقام نفيل في الجموع متكلما ، فتوجه إلى حرب قائلاً : يا أبا عمرو ؛ أتنافر رجلاً هو أطول منك قامة وأعظم منك هامة وأقل منك ملامة ، وأكثر منك ولدا وأجزل منك صفدا (عطاء) وأطول منك مددا ... وإني لأقول هذا وإنك لبعيد الغضب رفيع الصوت في العرب ، جلد المريرة لحبل العشيرة ... ولكنك يا حرب نافرت منفّراً .

حاول نفيل أن يخفف من وطأة الحكم على حرب ، فعرف له حقّه وقرره على الملأ ، فحرب بن أمية رجل متصف بالأناة والحلم ، مسموع الكلمة في

قبائل العرب ، عطوف على عشيرته عامل على أُلفتها يشدُّ من حبل هذه الألفة حتى تبقى المودة فيها سائدة والمحبة فيها متأصلة ، ولكنه مع ذلك لا يتفوق على عبد المطلب الذي ساد قريشاً بصفاته الحميدة وهمته القعساء وكرمه الواسع ...

وغضب حرب من نفيل واحتج على حكمه وقال له ساخراً : من انتكاس الزمان أن جعلناك حكماً !

وأخذ عبد المطلب من حرب مائة ناقة دية اليهودي القتيل ، واستعاد ماله المسروق ، ودفع كل ذلك إلى ذويه ...

وتباعد ما بين عبد المطلب وحرب ، وانهارت صداقتهما ، ولم تعد مجالس المنادمة بينهما أبدا ...



لم يكن لبني أمية بن عبد شمس من مفاخر قريش سوى القيادة الحربية ، فأفرغوا جهدهم في إجادة هذه القيادة ، وحاولوا أن يبرزوا من خلالها كزعماء أنداد لبني هاشم .

واختبر بنو أمية في قيادتهم هذه مرات عديدة في عهد زعيمهم حرب بن أمية ، فقد أدار الحرب التي وقعت بين قريش وقيس عيلان في عكاظ ، وقاد قريشا في حربها مع بني بكر بن عبد مناة في ذات نكيف ، وكان قائدهم في الفجارين الأول والثاني ...

وإذا كانت المعلومات غير متوافرة عن حربي عكاظ وذات نكيف فإنها متوافرة عن الفجارين الأول والثاني ، وحوادثهما تعطينا صورة عن قيادة حرب بن أمية وإخوته لهذه الحروب ، وتعطينا صورة عن سعيهم الحثيث لتثبيت أقدامهم في الزعامة والسيادة والشرف .

ما الذي حدث في الفجار الأول ؟

فتية عابثون من قريش وكنانة يجوبون الأسواق ويذرعون الطرقات ، ولا هَمَّ لهم إلا العبث والمرح ، ولا عمل لهم سوى اللهو والمجون .. وامرأة من

بني عامــر ترتــاد أســواق مكــة فتكــون هدفــاً لعبث هؤلاء الفتيــة ، فتصــرخ مستغيثة : يا لعامر ! ، فتثور الدماء في رجال من قومها فيعمدون إلى هؤلاء العابثين فيعملون فيهم السيف ، فتراق الدماء ، وتطل نذر الحرب ...

ويتنادى بنو عامر : يا للشرف المهان والكرامة المهدورة ...

وتتنادى قريش وبنو كنانة : يا للدماء المراقة ، يالثارات القتلى من بنينا !

ويتـداعى الفريقان للحرب ، ويجمع كل منهما رجاله وعتاده ... ويتبارز الفرسان وتقع في الفريقين قتلى وجراحات ...

ويتنــاسى حرب بن أميــة أنــه قائــد قريش وكنــانة ، فيترك مكانه ويسعى للوســاطــة بين الفــريقــين حدباً على قومه أن تراق دماؤ هــم ، واقتناعاً منه بأن الحق في جانب بني عامـر وأن قريشــاً وكنــانــة هــم البادئون ، وهــم المعتدون ، وعليهم أن يصلحوا ما أفسدوا وأن يرتقوا ما فتقوا ..

ويتقـدم حرب بنفســه إلى بني عامر ويعرض عليهم الصلح ، ويستعد أن يقــدم لهم ما يشــاؤ ون مقــابــل ما أصــابهم من عبث فتيــان قريش وكنــانــة بصاحبتهم ، ويرضى بنو عامر بوساطة حرب ، ويقبلون ما عرضه عليهم من تعويض ، ويكف بنو عامر عن كنانة وقريش ، وينصرف الفريقان ولا حديث لهم إلا ما فعله حرب بن أمية من خير للفريقين ، وإلا ما قدمه حرب من ماله حقناً لدماء القبيلتين ؛ فنال حرب من هذه الوساطة ما أراده من حسن السيرة وبعد الصيت .

وكان الفجار الثاني أبعد غورا من الفجار الأول في أسبابه وأحداثه ونتائجه ...

فقد كان للنعمان ملك الحيرة وسيدها لطائم (١) تجارية تنتقل بأحمالها من الحيرة إلى أسواق الجزيرة وبخاصة سوق عكاظ الشهيرة بين مكة والطائف ، وكان النعمان يستأجر من أشراف القبائل العربية من يجير له هذه القوافل من

---

(١) اللطيمة : العير التي تحمل المسك ، والجمع لطائم

إغارة قبائل البدو أو جماعات الصعاليك المنتشرة على طول الطريق وفي عمق الصحاري ، حتى تذهب هذه اللطائم وتعود آمنه سالمة ، وكان رؤساء القبائل وسادتها يتنافسون على إجارة هذه القوافل لما في إجارتها من مكاسب مادية وأخرى معنوية أهمها التقرب من النعمان سيد الحيرة والمقرب من كسرى عظيم الفرس فى ذلك الزمان ...

وتنافس على إجارة اللطائم في مجلس النعمان البراض بن قيس الضمري من كنانة وعروة الرحال من هوازن ، واشتدت بينهما المنافسة ، فأغلظ كل منهما لصاحبه أمام النعمان ، وحط من قدره عنده ، فامتلأت القلوب بالغيظ والصدور بالحقد ، فعمد البراض فأفرغ غيظه ونفث حقده في طعنات وجهها إلى صدر عروة الرحال فأرداه قتيلا ... وفرّ هاربا .

ويلغ النبأ قريشاً وهي فى سوق عكاظ ، فانسحبت منه مسرعة قبل أن تعلم بالأمر قبائل هوازن ، ولكنها لم تكد تبعد في انسحابها حتى علم بالنبأ أبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسُنة من سادات بني عامر من هوازن ، فأسرع برجاله خلف قريش التي جدت بالسير ، فلم يدركهم إلا وقد دخلوا الحرم وأمنوا على أنفسهم ... عند ذلك ناداهم عامر قائلاً : يا معشر قريش ، إنا نعاهد الله أن لا نبطل دم عروة الرحال أبداً حتى نقتل به عظيماً منكم ، وميعادنا وإياكم هذه الليالي من العام المقبل .

فأجابه حرب بن أمية : إن موعدكم قابل في مثل هذا اليوم .

واستعدت كنانة للحرب وكذلك هوازن ، واستمرت الاستعدادات سنة كاملة ، وقاد كنانة في حربها حرب بن أمية ، والتقى الفريقان في عكاظ خمس مرات في خمسة أعوام ، يقتتلون في كل عام يوماً واحدا ، وقد تفوقت هوازن في الأيام الثلاثة الأولى ...

أما اليوم الرابع فكان التفوق فيه لكنانة ، فقد خرجت بقيادة حرب بن أمية ، وقد تعاهدت على الصبر والثبات بعد ثلاث هزائم ، وأحضر حرب

إخوته وبث فيهم الحمية وناشدهم الثبات ، فعاهدوه على ذلك ، وقالوا : لن نبرح حتى نموت مكاننا أو ننتصر ...

وأبلوا في هذا اليوم بلاء عظيما ، فعرفت لهم ذلك بنو كنانة ، فسَمُّوهم « العنابس » (١)

ودخلت قريش الحرب في يومها الخامس في عامها الخامس ، دَخلته وهي مزودة بمعنويات انتصارها في العام السابق ، ودخلته هوازن وهي مصممة على ردا اعتبارها لتلك الهزيمة التي حلت بها في العام الذي مضي ، وحمي وطيس المعركة ، وأفرغ الفريقان فيها جهدهما وأظهرا كل ما لديهما من براعة في الحرب والنزال ، فكثر القتل فيهما ، ولم يسلم أحدهما بالهزيمة للآخر ، ورأى عتبة بن ربيعة بن عبد شمس أن هذه الحرب سوف تأكل شباب الفريقين ، فدعا للصلح ، ونادى بأعلى صوته : يا بني قيس ، هلموا إلى صلة الأرحام والصلح .

قالت هوازن : وما صلحكم ؟

قال عتبة : على أن ندي قتلاكم ونتصدق عليكم بقتلانا .

قالوا : رضينا بذلك على أن تضمنوا لنا الوفاء .

قال عتبة : اطلبوا ما تشاؤون .

قالوا : نريد رهنا من أبنائكم .

قال عتبه : قد رضينا ، وهذا أبوسفيان بن حرب ، أمسكوه حتى نفي لكم بوعدنا .

ولبث أبوسفيان بن حرب في الطائف إلى أن سلمت الديات لأصحابها ، ثم عاد إلى مكة معززاً مكرما .

وهكذا انتهت حرب الفجار ، وخرج منها بنو أمية مسجلين لأنفسهم نصراً حربياً في يومها الرابع ونصراً معنوياً في يومها الخامس ...

---

(١) العنابس : الأسد شديدة البأس .

أبو سفيان

قبل عام الفيل بعشر سنين ولد لحرب بن أمية من زوجه صفية بنت حزن الهلالية ولده البكر ، فسماه صخراً على عادة العرب في الجاهلية في تسمية أبنائهم بأسماء توحي بالقوة والقسوة والغلظة ، وكناه بأبي سفيان على عادة بعض القبائل في تكنية أبنائهم منذ الصغر •

وتعهد حربٌ ولده بما يتعهد به الأشراف أولادهم ، وأغلب الظن أنه علمه الفروسية ليعده للقيادة الحربية من بعده ، ثم علمه فنون التجارة التي كانت مورد الرزق لقريش ، ومصدر الغنى والثروة لبني أمية ، ولا نشك أنه لقنه بالقول والقدوة حب الرياسة وعشق الزعامة والسعي من أجل كسب المعالي ونيل الشرف •

وشب أبو سفيان فرافق أباه في حروبه ، فقد صحبه في أيام الفجار ، وكان فيها يقارب العشرين من السنين أو يزيد عليها قليلا ، وقد كان رهينة قريش لدى هوزان إلى أن تم الصلح ونفذت شروطه وطويت صفحة الحرب بين الفريقين ، ولا شك أنه قد أخذ يبرز في هذه الأثناء كواحد من فتيان قريش اللامعين الذين يشار إليهم بالبنان وإلا ما اتجهت إليه الأنظار ليكون رهينة تقبلها هوزان وترتاح إليها •



كان أبـو سفيـان ربعـة في الـرجـال ، لاهـو بالطـويـل المفرط ولا بالقصير المـتردد ، إلا أنـه كان إلى القصـر أقرب ، كبير البطن ، عظيم الرأس ...
ومن هذه الصفات التي زودنا بها رواة التاريخ والأدب نستدل على أنه لم يكن وسيماً تهواه النساء وتقبل عليه ، ومع ذلك فقد تزوج بالعديد منهن على عادة العـرب في الجـاهليـة والسـادة منهم بخـاصة ، فقد كانوا يكثرون من الزواج لمقـاصـد كثيرة أهمها تكثير الولد الذي يعدونه لتقوية عضدهم وشدّ أزرهم ، ومنهـا الإصهـار إلى عدد كبـير من القبـائل حتى تكون لهم عوناً في منازعاتهم وخصوماتهم ، وما كان أكثرها.

كان من أزواجه :

صُفيـا بنت أبي العـاص بن أميـة ، وزينب بنت نوفـل الكنانية ، وعاتكة بنت أبي أزيهـر الـدوسي من الأزد ، وصَفيـة بنت أبي عمرو بن أمية ، ولبابة بنت أبي العـاصي بن أميـة ، وامـرأة من بني الحارث بن عبد مناة لم تذكـر لنا المصادر اسمها ، وصعبة امرأة فارسية كانت على حظ من الجمال كبير (١) ، وهند بنت عتبه بن ربيعة بن عبد شمس .

ونستطيـع أن نقف على شيء من الصفـات التي اتصف بها أبـو سفيـان وعلى بعض العـادات التي كانت سائـدة في المجتمـع الجـاهلي من هذا الحوار الذي دار بين عتبة بن ربيعة وابنته هند عندما خطبها أبو سفيان ورجل آخر من قريش :

قال عتبه لابنتـه هنـد : إنه قد خطبك رجلان من قومك ، ولست مسمياً لك واحداً منهما حتى أصفه لك :

أما الأول ففي الشرف الصميم ، والحسب الكريم ، تخالين به هوجاً من غفلتـه ، وذلـك إسجاح من شيمته ، حسن الصحابة ، حسن الإجابة ، إن تابعته تابعك ، وإن ملت كان معك ، تقضين عليه في ماله ، وتكتفين برأيك في ضعفه .

(١) جاء في أسد الغابة في معرفة الصحابة أنها بنت الحضرمي عبدالله بن مالك وهي أخت العلاء بن الحضرمي .

وأما الآخر ففي الحسب الحسيب ، والرأي الأريب ، بدر أرومته ، وعزّ عشيرته ، يؤدب أهله ولا يؤدبونه ، إن اتبعوه أسهل بهم ، وإن جانبوه توعّر بهم ، شديد الغيرة ، سريع الطيرة ، شديد حجاب القبة ، إن جاع فغير منزور ، وإن نوزع فغير مقهور .

قالت هند : أما الأول فسيّد مضياع لكريمته ، مؤات لها فيما عسى إن لم تُعصم أن تلين بعد إبائها وتضيع تحت جنائها ، إن جاءت بولد له أحمقت ، وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت ، اطو ذكر هذا عني فلا تُسمه لي .

وأما الآخر فبعل الحرة الكريمة ، إني لأخلاق هذا لوامقة ، وإني له لموافقة ، وإني لآخذة بأدب البعل مع لزومي قبتي وقلة تلفتي ، وإن السليل بيني وبينه لحري أن يكون المدافع عن حريم عشيرته ، الذائد عن كتيبتها ، المحامي عن حقيقتها ، الزائن لأرومتها ، غير مواكل ولا زُميل عند ضعضعة الحوادث ... فمن هو ؟

قال عتبة : ذاك أبو سفيان بن حرب .

فقالت : فزوجه ولا تلقني إليه إلقاء المتسلس السَّلس ، ولا تَسُمه سوم المواطس الضرس ، استخر الله في السماء يخر لك بعلمه في القضاء .

هذا هو أبو سفيان بن حرب ، في الذروة في النسب ، فهو سليل عبد مناف ، وهو ابن حرب بن أمية ، وهو ذو رأي ثاقب وكلمة مسموعة وأمر نافذ ، تعتز به عشيرته وتقدمه إذا ادلهم خطب أو ناب مكروه ، ذو شخصية في قومه وفي أهله ، ليس لنسائه عليه سلطان ، سمح الخليقه إذا أطاعوه ، وعر الأخلاق إذا خالفوه ، ذو غيرة شديدة على الحرمات ، لا ينازعه امرؤ في شيء إلا غلبه .. وعلى هذه الأخلاق والصفات فإن فيه شحاً غير محمود .

هذه الشخصية النافذة المطاعة جعلت أبا سفيان يقول لمن نزل به جاراً : يا هذا إنك قد اخترتني جاراً ، فجناية يدك عليَّ دونك ، وإن جنت عليك يد فاحتكم عليّ حكم الصبيّ على أهله !

وتلك هي هند بنت عتبة ، إحدى نساء قريش ممن وصلن مكانة عالية جعلت أباها يستشيرها ويخيرها في أمر زواجها في مجتمع كانت فيه المرأة مهيضة الجناح خاضعة خضوعاً تاماً للرجال يفعلون بها ما يشاؤون ويتصرفون بأمورها كما يريدون ٠٠٠ ولعل ملامح هند هذه تبدو جلية في اختيارها للزوج الحازم ذي الشخصية النافذة والمقام الرفيع الذي لم يعرف عنه خضوع للنساء وانسياق وراء رغباتهن ، على الرجل الذي وصف بأنه مطواع للنساء ملب لرغباتهن تارك لهن الحبل على الغارب ٠

والتقت هند ذات العقل الراجح والشخصية المعتدة بنفسها مع أبي سفيان سيد قريش وذي الأمر الذي لا يرد فهل كان لهند من تأثير على أبي سفيان ، وهل جعلت من هذا الرجل الذي لم يستمع لامرأة قط في أمر مهما صغر يغير رأيه وينفذ ما تطلبه منه ؟

اختبر أبو سفيان في موقف يجعلنا نقر لهند بالنفاذ إلى قلبه ٠ ٠ ٠

فقد كان لأبي سفيان عدد من النساء فيهن امرأة فارسية ذات حظ من الجمال كبير ، وكان أبو سفيان عليها مقبلاً ولها محباً ، فأزعج ذلك هندا ، فألحت على أبي سفيان في فراقها ، فتمنع ولم يطع ، ولكنها عادت وزادت في الإلحاح وبالغت فيه ، فوقع أبو سفيان تحت تأثير هذا الالحاح فطلقها ٠٠٠

وأسرع القرشيون فتنافسوا في الزواج من الفارسية ذات الجمال ٠٠٠ ففاز بها عبيد الله بن عثمان التيمي ، فولدت له فيما بعد ولداً نجيباً دعاه طلحة وهو الذي غدا فيما بعد واحداً من أوائل الملبين لدعوة الاسلام وأحد العشرة المبشرين بالجنة ٠٠٠

وعض أبو سفيان على زوجه الفارسية بنان الندم ، وتتبعتها نفسه ، ولكنه ندم حين لا ينفع الندم ، فقد غدت صعبة زوجة رجل آخر ، ولم يجد أبو سفيان لنفسه من سلوى سوى الشعر فقال :

إنـا وصـعـبـة فيـما ترى بعـيـدان ، والـودُّ ودٌّ قريـب[1]
فإلا يكـن نسـب ثاقـب فعـنـد الـفـتـاة جمال وطـيـب
لها عنـد سري بها نخـرة يزول بها يذبـل أو عسـيـب
فيـا لقـصـي ألا فاعـجـبـوا فللوبـر صال الـغـزال الـربـيـب

ومـع أن أبـا سفيـان قد تزوج عدداً كبيراً من النساء إلا أنه لم يكن عفيف النفس طيب المئزر ، فقد كان يعاشر البغايا ولا يعف عن مثل هذه الدنايا ، فقـد ذكـرت مصادر متعددة أنه كان يعاشر بغايا الطائف عندما تحمله مصالحه للذهـاب إليهـا ، وذكـر أنـه عاشـر بغياً اسمها سمية ، وولدت لعُبيد ، غلام الحـارث بن كلدة الثقفي ، ولـدا سُمي زيـادا ، ويبـدو أن عبيدا هذا لم يكن متأكـدا من أبـوتـه لزياد ، فدُعي ذلك الولد باسم زياد بن أبيه ، ولما نبغ هذا الفتى ورأى أبـو سفيـان عليـه مخايـل الـذكـاء والفطنة والنبوغ ادعاه لنفسه ، وصرح بذلك أمام أحد الصحابة دون مراعاة لأحكام الدين الذي به يدين •

* * *

ولـد لأبي سفيـان من نسـائـه بنـين وبنـات ، فقـد عرفنا أن له من البنين سبـعـة : حنظلة ، وبـه كان يكني ، وقـد قتله علي بن أبي طالب يوم بدر مشركاً ، وعمرو ، وقد أسره المسلمون يوم بدر ، ويزيد الذي كان واحداً من أمراء الجيوش الإسلامية التي وجهها أبو بكر لفتح الشام ، ومعاوية والي الشام وخليفـة المسلمـين ورأس الدولـة الأمـويـة ، وعنبسـة ، الـذي ولاه معاوية الطائف ثم عزله ، وعتبة الذي ولي الطائف بعد عزل عنبسه عنها ، وقد كان عتبة أخا معاوية لأمه وأبيه بينما كان عنبسه أخاه لأبيه ، لذا قال عنبسه عندما عزله معاوية وولى مكانه عتبة :

كنا لصخر صالحاً ذات بيننـا جميعاً ، فأمست فرقت بيننا هنـد

ومحمد ، وهو أخو عنبسة لأمه وأبيه ، وأمهما عاتكة بنت أبي أزيهر •

(1) انظر عيون الأخبار لابن قتيبة الدنيوري الجزء الرابع ص ١٠١

وكـــان لأبي سفيـــان من البنـــات تســـع : رملة ، وهي أم حبيبـــة ، أم المـؤمنـين ،زوج رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم أمينة وجويرية وأم الحكم وهند وصخرة وميمونة والفارعة وعمرة (١) ٠



انصـرف أبـو سفيـان في حيـاة أبيه إلى التجارة ، فقد كان أبوه يتولى قيادة قريش في حروبها مع من يعاديها من القبائل الأخرى ، ولم تكن تلك الحروب كثيرة أو خطيرة ، فقد كانت قريش تجنح إلى السلم وتتفادى الحروب بسبب من سكنـاهـا في وادٍ غير ذي زرع ، فهي في حاجـة إلى التفرغ لمعاشها الذي تكتسبـه من تجارتهـا الـرابحـة ، والتجارة لا تنفع معها الحروب المستمرة التي تؤدي إلى قطع الطرق التجارية أو جعلها غير مأمونة ، ثم إن قريشاً بحاجة إلى الســلام الـذي يبقي على الحـرم أمنـه واستقـراره لتطمئن العـرب على حجها ، فالحج لا يصلح مع الحرب والنزاع ٠٠٠

وقـد أدت كراهيـة قريش للحـروب وتفضيلهـا للسلم أنْ أصبح ذلك فيها طبيعة يرثها اللاحق عن السابق والأبناء عن الآباء ٠٠

ولا نشـك أن أبـا سفيان قد ورث عن عشيرته حبه للسلم وحرصه عليه ، ومما زاد في هذا الحب وأكـد ذلـك الحـرص انصـراف أبي سفيان إلى التجارة وتـدفق الأربـاح عليـه ونمـو ثروتـه وثـروة آلـه وعشيرته ، وكل ذلك ينمي في الانسان الحرص على السلام والتمسك به ويزيد من بغضه للحرب وما تجره من خسارة في المال والولد وما تبعثه في النفس من بلبال وفي الحياة من اضطراب ٠٠٠



(١) جاء في صحيح مسلم : قال أبو سفيان لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يا رسول الله : ثلاث أعطينهن ٠ قال : نعم ، قال : تؤمـرني على أن أقـاتـل الكفـار كما كنت أقـاتـل المسلمـين ٠ قال : نعم ، قال : ومعـاويـة تجعله كاتبـاً بين يديك ،قال : نعم ، قال : وعندي أحسن العرب (عمرة بنت أبي سفيان) أزوجكها ٠

ولم يمنـع أبـا سفيان ما كان بين أبيه وبين عبد المطلب من خلاف أن ينادم العباس بن عبد المطلب ويتخذه صديقا ، بل ويرافقه في رحلاته التجارية إلى اليمن أو الشام أو فارس أو الحبشة ، فقد روت لنا كتب التاريخ والسيرَ أن أبا سفيـان كان يخرج في قافلة قريش التجـاريـة إلى اليمن مع العبـاس بن عبـد المطلب ، وكـان من دهـائهـما أن يدعيا أن صلة من القربى تربطهما باليمن ، وقـد انطلى هذا الـزعـم على رجـال من كنـدة حتى أنهم عنـدمـا قدموا على رسـول الله مسلمـين ادعوا أنه منهم وأنهم منه ، فقال لهم رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ إنـما كان يقـول ذلـك العبـاس وأبو سفيان بن حرب فيأمنا بذلك ، إننا لن ننتفي من آبائنا ، نحن بنوالنضر بن كنانة

* * *

ذهب أبو سفيان تاجراً إلى العراق وفارس أكثر من مرة ، فقد ذكر أنه خرج في جماعة من قريش يريدون العراق بتجارة ، فلما ساروا ثلاثة أيام جمعهم وقال لهم : إنا من مسيرنا هذا لعلى خطر ، ما قدومنا على ملك جبار لم يأذن لنا في القـــدوم عليـــه ، وليست بلاده لنـا بمتجـر ؟ ولكن أيكم يذهب بالعـير فإن أصيب فنحن براء من دمه وإن غنم فله نصف الربح ؟

قال غيلان بن سلمه : دعوني إذاً فأنا لها •

وذهب غيلان بالعير فباع وربح وعاد غانماً •••

وفي رحلة تجاريـة أخـرى قابل أبو سفيان كسرى وأهدى إليه خيلاً وأدما ، فقبـل الخيـل وردّ الأدم ، وأهـداه مخدة كانت تحت يده ، فقـال أبو سفيان في نفسه : واجوعاه ! هذه حظي من كسرى بن هرمز ؟

قال أبو سفيان : فخرجت من عند كسرى وأنا أحمل مخدته ، فما أمرّ على أحـدٍ من حشمـه إلا أعظمهـا حتى دفعتها إلى خازن له فأخذها وأعطاني بها ثمانمائة إناء من فضة وذهب !

* * *

أمـا رحـلاتـه التجارية إلى الشام فقد كانت كثيرة ، تحدثت كتب التاريخ

عن ثلاث (١) منها حديثاً مفصلاً ، أما الأولى فسوف نفصلها هنا وأما الثانية والثالثة فنرجىء الحديث عنهما إلى موضع آخر ...

كانت قافلة عظيمة ، اشترك فيها تجار مكة والطائف ، وحملوا من بضاعة البلدين ومما يرد عليهم من بلاد الفرس مانَفُس وغلا وما يعرفون أنه يروج في بلاد الشام ، وساروا بها ليبيعوها لتجار الروم الذين ينتظرون في أسواق الشام قدوم مثل هذه القوافل ...

كان في هذه القافلة رجلان من السادة المشهود لهم بالنبل والشرف ؛ أبو سفيان بن حرب تاجر قريش وسيد من ساداتها ، وأمية بن أبي الصلت من تجار الطائف وأحد السادة المعدودين فيها وشاعر ثقيف بلا منازع .

وكان من الطبيعي أن تنعقد الصداقة بين أبي سفيان وأمية ، فكلاهما سيد في قومه ، شريف في بلده ، وكلاهما شاعر يعشق الشعر ويقوله ، وإن كان أميه أشهر بالشعر ، إذ أنه أشد احتفاء به وأكثر قولاً له وأجود سبكاً لقصائده ، وأبو سفيان يقول البيتين والثلاثة في حادثة تمر وموقف يعرض فلا يستقصي الحوادث ولا يحلل المواقف .

وكان أمية مشهوراً بين الناس بانصرافه عن الوثنية الجاهلية وإقباله على الديانات السماوية المعروفة يقرأ كتبها ويزور علماءَها ، فيتأثر بذلك كله حتى كاد أن يكون نصرانيا ، وحتى ظن كثير ممن قرأ أخباره أنه قد اعتنق النصرانية دينا ومذهبا ، ونحن نشك في ذلك ونميل إلى القول بأن صلته بالنصرانية لم تتعد الاطلاع والإعجاب والتأثر ...

وكلما ذهب أمية في رحلة تجارية من هاتيك الرحلات الكثيرة التي يخرج فيها عطف على أديرة النصارى ودلف إلى صوامعهم ، يستمع إلى أقوالهم وينصت إلى عظاتهم ، ويتعلم منهم مما في كتبهم من بقايا تعاليم السماء إلى الأنبياء ، فيعجب بها ، ويأخذ عنهم ما يتزود به في رحلاته وتأملاته ، وما

---

(١) الأولى هذه التي نفصل الحديث عنها ههنا ، والثانية تلك التي قابل فيها هرقل وسأله عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والثالثة تلك التي حدثت بسببها معركة بدر ، وتفصيل الحديث عن الثانية والثالثة في موضعهما من هذا الكتاب .

يعينه على قطع طريقه الطويل من الطائف إلى الشام ومن الشام إلى الطائف ·

وغدا أمية معروفاً عند هؤلاء الرهبان ، يرحبون به كلما مرّ بهم ويكرمونه كلما زارهم ، ويحتفون بمن معه من أولئك العرب الذين لم يكونوا يحفلون بما يقوله هؤلاء الرهبان ولا يقبلون عليهم ، وأغلب الظن أنهم كانوا ينفرون من هذه الوحدة الموحشة التي يعيشها الرُهبان ومن تلك التعاليم الصارمة التي تفرض عليهم الوحدة وشظف العيش ، وتدفعهم للانصراف عن حاجات الإنسان الضرورية في الزواج وإنجاب الذرية ، فقد كانت هذه الأمور وأمثالها من الأشياء التي تستهوي العربي الجاهلي ، فهومقبل على الحياة يعُبّ من لذاتها ··· يهوى النساء ويكثر منهن ، ويعشق الذرية فيكثر منها ليُفاخر بها منافسيه ويكاثر بها أعداءه ·

ولم يكن أبو سفيان سوى واحد من هؤلاء العرب الذين انصرفت نفوسهم عن مخالطة هؤلاء الرهبان والاستماع إليهم ، لذا فقد كان يرفض دائماً أن يرافق صديقه أمية كلما دعاه إلى زيارة راهب من هؤلاء الرهبان الذين تنتشر أديرتهم على طول الطريق الصحراوي الممتد من مكة إلى الشام ، ولم يكن أبو سفيان يأبه لهذه الأحاديث التي يأتي بها أمية من عندهم ، ولم يكن يلتذ سماعها ، بل كثيرا ما حاول أن يصرف أمية عن الخوض فيها والتحدث بتفاصيلها كلما ضمهم مجلس أو ساروا يتنادمون وهم يقطعون الطريق ·

ولاحظ أبو سفيان في رحلتهم هذه أن أمية عاد بعد زيارته لواحد من هذه الأديرة مهموماً حزيناً ، ولما خيم الليل لاحظ أبو سفيان أن أمية قلق لا يأتيه النوم ولا يطاوعه وهو مع ذلك منصرف الى نفسه راغب عن محادثة أبي سفيان أو غيره من الرجال الذين يضمهم السرادق الضخم الذي يبيتون فيه ·

ولما أصبح الناس التفت أمية إلى أبي سفيان ، ولم يزد على أن قال : ألا ترحل يا أبا سفيان ؟

ومضى على ذلك ليال ثلاث لا يسمع أبو سفيان أو غيره من أمية إلا كلمات مقتضبة أشد ما يكون الاقتضاب ، موجزة كأيسر ما يكون

الايجاز ••• وأبو سفيان لا يكلمه احتراما لما يرى على وجهه من علامات الاضطراب وأمارات الحزن ودلائل الهم والتفكير •

وفي اليوم الثالث قال أمية لأبي سفيان : ألا تحدث يا أبا سفيان ؟

قال له أبو سفيان : وهل بك من حديث ؟ والله ما رأيت مثل الذي رجعت به من عند صاحبك !

فصمت أمية ثم التفت إلى أبي سفيان وقال : أتدري يا أبا سفيان ما الذي أهمني ؟

قال أبو سفيان : وما الذي أهمك ؟

قال أمية : لقد جئت هذا الراهب ، وهو عالم بالدين ، فسألته عن النبي الذي ينتظر فقال : هو رجل من العرب ، فقلت له : من أي العرب ؟ قال : من قريش صاحبة البيت الذي تحجه العرب •

وهنا انتبه أبو سفيان وقال لأمية : وبعد يا أمية ؟

قال أمية : وماذا بعد ما قاله يا أبا سفيان ، لقد أصابني هم ما أصابني مثله قط ••• فقد خرج مني فوز الدنيا والآخرة •

قال أبو سفيان دهشاً : ولماذا ويحك ؟

قال أمية بعد أن تنهّد بأسىً وحزن : لأني كنت أرجو أن أكون ذلك النبي !

لقد سرّ أبا سفيان ما سمعه من أمية ، فإن ظهور نبي من قريش لفخر دونه الفخر كله ، وإذا كان ذلك النبي من بني عبد مناف فقد ذهبنا بها عريضة في مضارب العرب وبلاد العجم ، وإن كان من بني أمية فإنه لفخر الأبد الذي لا يحول ولا يزول ••• ولعل آمالاً راودت أبا سفيان ومنته بالتفوق على منافسيهم من بني هاشم إذا كان هذا النبي القرشي من ذويه الأقربين •

وسرعان ما صرف أبو سفيان تفكيره عن هذا الأمر عندما غرق في تصريف أمور القافلة ، وإن كنا نظن أن هذا الأمر قد استقر في أعماق ذاكرته وفي صميم وجدانه •

* * *

لم يكن أبو سفيان يعود من رحلة تجارية إلا ليبدأ بأخرى ، فهو بين الشتاء والصيف يقوم برحلاته إلى الشام تارة وإلى اليمن أخرى وإلى فارس مرةً وإلى الحبشة أخرى ، ولم تكن رحلاته تخلو من رفقاء يأنس بهم ويلتذ بصحبتهم ، وقد كانت رحلته السابقة إلى الشام مع أمية بن أبي الصلت ذات فوائد وعبر يذكرها ولا ينساها ، ولم تكن رحلته التي تلتها إلى اليمن بأقل منها فائدة وعبرة ، فقد كان رفيقه فيها صديقه ونديمه العباس بن عبد المطلب ٠

ولقد أقامت قافلتهم باليمن وأطالت الإقامة ، فهي بين بيع ما حملته من مكة وبين شراء ما تحتاجه من بضائع اليمن تمكث الأيام والأسابيع ، وربما طال مكثها فبلغ الشهر والشهرين والثلاثة ٠٠٠ وقد كان سيدا القافلة ، العباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن حرب ، يتناوبان إطعام القافلة ، فيوماً يولم لهم العباس ويوماً يؤدب لهم أبو سفيان ، وكان كل منهما يحضر مأدبة الآخر فيتجاذبان أطراف الحديث ويخوضان في شؤ ون الناس وشجونهم ، فيتناولان أحاديث اليمن وأخبار الفرس ووقائع الروم وأيام الأحباش ، بالإضافة إلى ما يذكرانه ويتحدثان به من أخبار العرب وأيامهم ووقائعهم ٠٠٠

وبينا أبو سفيان في مجلسه إذ وصله كتاب من ولده حنظلة ، ففضه وقرأه ثم طواه ، ثم فضه وقرأه ثم طواه وضم عليه يده ، ودهش الحاضرون من صنيعه ، فسألوه عما يكون في هذه الصحيفة حتى تقلقه ، فلم يرد عليهم ، بل قام من مجلسه ودخل مضجعه ، وأعلن للجالسين أنه يود أن يخلو بنفسه ٠

وبعد انصراف الناس أرسل إلى العباس يستدعيه إليه ، وقال لمن أرسله : أبلغه أن يتعجل المجيء فإني أحتاج إليه ٠

أسرع العباس ملبياً دعوة أبي سفيان ، فلما دخل عليه خيمته قال أبو سفيان : مرحباً بك يا أبا الفضل ، تفضل بالجلوس ٠

ولم يكد العباس يأخذ مجلسه على تكرمة أبي سفيان حتى بادره قائلاً :

هل علمت يا أبا الفضل أن ابن أخيك يزعم أنه رسول الله ؟

قال العباس : وأي بني أخي ؟

قال أبوسفيان : إياي تكتم يا أبا الفضل ؟ وأي بني أخيك ينبغي أن يقول هذا إلا رجل واحد ؟ !

قال العباس : وأيهم يا أبا حنظلة تعني ؟

قال أبو سفيان : محمد بن عبد الله •

قال العباس : أحقاً تقول أن ابن أخي محمدا قد فعل ذلك ؟

قال أبو سفيان : نعم ، وهذا كتاب ولدي حنظلة ، فخذه واقرأه لتتأكد مما أقول إن كنت حقاً تجهله !

وتناول العباس الرسالة وقرأ فيها : أخبرك يا أبي أن محمدا قام بالأبطح فقال : أنا رسول الله أدعوكم إلى الله عزّ وجل •

وطوى العباس الكتاب ، وناوله إلى أبي سفيان وهو يقول : أجده يا أبا حنظلة صادقاً !

قال أبو سفيان : مهلاً يا أبا الفضل ، فوالله ما أحب أن يقول مثل هذا ، إنه والله ما برحت قريش تزعم أن لكم هِنَةً وَهِنة ، كل واحدة منها غاية ! نشدتك يا أبا الفضل هل سمعت ذلك ؟

قال العباس بهدوء : نعم قد سمعت•

قال أبو سفيان بعصبية ظاهرة : فهذه والله شؤمتكم .

فتبسم العباس وقال وهو يضع يده على كتف أبي سفيان : لعلها يا أبا حنظلة يمنتنا •

قال أبو سفيان : أقسم يا أبا الفضل أن لا أومن به حتى أرى الخيل في كداء (١) ، ووالله إني لأعلم أن الله لا يترك خيلاً تطلع من كداء !

قال العباس وهو يهم بالانصراف : أنت وشأنك يا أبا حنظلة ، دعنا من هذا الأمر الآن ، ولننصرف إلى قافلتنا ، فقد أزف المسير إلى مكة • • •

* * *

(١) ثنيّة بأعلى مكة عند المحصَّب

استقبـــل أهــل مكــة القــافلة العــائــدة من اليمن كما اعتــادوا أن يستقبلوا قوافلهم التجارية التي تحمل لهم الأرباح الوفيرة والأمتعة الجديدة ، فكلهم له في القافلة أموال يتجر بها وينتظر ربحها ، فقد كانت هذه القوافل لمكة كلها لا تخص أحداً دون آخر وإن كان لأغنياء مكة وسادتها نصيب الأسد فيها ، لذا فقـد تدفق النـاس على بيت أبي سفيـان وكل منهم يسأله عن ماله وما ربح ، ويستنجزه حقه من هذا الربح ، فيقبضه وينصرف لشأنه .

وعنـدمـا فرغ أبـو سفيـان من التوزيع ، وفرغ المنزل إلا من أهله ، التفت فلم يجد قد بقي عنده إلا ما يخص محمد بن عبدالله ، فإنه لم يأت بعد لأخذ حقه ونصيبه من الأرباح .

ولم يلبث أبو سفيان إلا قليلا حتى جاء محمد بن عبد الله ، فسلَّم عليه ، ورحَّب به ، وسأله عن سفره ، ولم يزد على ذلك ، ثم خرج .

ونظر أبو سفيان إلى زوجه هند وقال لها : ألم تري يا هند أن الناس كلهم سألـوني عن بضـاعتهم ومالهم ، وأن محمداً لم يسألني عن بضاعته وماله ، وما زاد على أن سألني عن حالي وشأني في حلّي وترحالي ... والله إن هذا ليعجبني .

قالت هند : أوما علمت شأنه ؟

قال أبو سفيان : لقد كتب لي حنظلة بخبره .

قالت هند : وماذا ترى فيما يقوله يا أبا سفيان ؟

فانتقص أبو سفيان وقال : إن هذا لهو الباطل ... لهو أعقل من أن يقول هذا .

قالت : بلى والله إنـه يقـول ما سمعت ، ويدعو إليه ، وقد أجاب دعوته جماعة من قريش .

ونهض أبو سفيان وخرج من منزله وهو يقول : هذا هو الباطل ، هذا هو الباطل .

وعمـد أبـو سفيـان إلى الكعبـة ، وأخذ يطوف بها وهو شارد اللب مشتت

الفكر ، فإن ما يقول به محمد لخطير ، فإن كان صادقاً فقد سبق بنو هاشم بني أمية إلى الأبد شرفاً وعزاً ومجدا وسؤددا ، وإن كان باطلاً فهو ذهاب مجد قريش وشرف بني عبد مناف وقداسة الكعبة ومركز مكة ... وقرر أبو سفيان أن يزجر محمداً إذا لقيه ، وأن يغلظ له في القول إذا أصرّ على دعوته وأبى أن يتركها .

ولم يلبث أبو سفيان أن رأى محمدا ، فما هو إلا أن لقيه حتى هدأت نفسه ، وسرعان ما عاد عما اعتزمه ، فلاطف محمدا وقال له : إن بضاعتك قد ربحت ربحاً وفيراً ، فأرسل من يأخذها ، ولست آخذاً منك فيها ما آخذه من قومي

فأبى عليه محمد ذلك وقال : إذن لا آخذها.

قال أبو سفيان وقد ازداد إعجابه بمحمد : إذاً آخذ منك ما آخذه من قومي ، فأرسل إلى بضاعتك من يأخذها .

وانصرف أبو سفيان إلى منزله وقد عزم أن يذهب من غده إلى الطائف ليسأل أمية بن أبي الصلت عن أمر محمد ، فقد تذكر ما كان بينه وبين أمية من حديث بشأن النبي الذي ينتظر في رحلتهما إلى الشام ، فلعله يصل بشأن ما يقوله محمد إلى رأي ، فإما أن يصدقه وإما أن يرى فيه رأياً آخر ...

ونزل أبو سفيان على أمية ، فقال له أمية وهو يرحب به : أمر ما أتى بك يا أبا سفيان ، فإنك لم تكن تقدم الطائف في مثل هذا الأوان.

قال أبو سفيان : نعم ، فإن فتىً منا يزعم أنه نبي مرسل يأتيه الخبر من السماء .

قال أمية وقد فاجأه النبأ : ومن يكون يا أبا سفيان ؟

قال : إنه محمد بن عبد الله .

قال أمية : ابن عبد المطلب .

قال : نعم .

فأخذ أمية يتصبب عرقاً وهو يقول : الله يعلم ... الله يعلم .

وصمت قليلاً ثم قال : والله يا أبا سفيان لعلّه ... إنَّ صفته لهي .

قال أبو سفيان : وما يمنعك أن تؤمن به يا أبا عثمان ؟

قال : ويحك يا أبا سفيان يمنعني منه أمران .

قال أبو سفيان : ما هما ؟

قال أمية : أولهما أني لا أومن بنبيّ من غير ثقيف أبدا .

قال أبو سفيان : هذا أول الضلال ، وثانيهما ؟

قال : ثانيهما يا أبا سفيان هو الاستحياء من نساء ثقيف ، فإني كنت أُحدثهن أني هو ، ثم يرينني تابعاً لغلام من بني عبد مناف ! يا أبا سفيان لن أتابعه أبدا .

وانصرف أبو سفيان عائداً إلى مكة وقد قربته مقابلة أمية مما يقوله محمد ويدعو إليه ، ولكنه ما إن دخل مكة حتى وجدها تموج بخلافاتها على محمد ودعوته ، وحتى رأى السادة منهم خاصة يعلنونها حرباً شعواء على محمد ومن تابع محمداً ، وحتى وجد بني أمية بخاصه يعلنون رفضهم القاطع للتسليم لبني هاشم بهذه المكرمة ، ولقد وجد زوجته هند بنت عتبة وأخته أم جميل بنت حرب زوج أبي لهب عم محمد تحرض على محمد ودعوته ومن تابعه على رأيه ، فتضاءل تأثير ما سمعه من أمية وتابع قومه في رفضهم للدعوة الجديدة التي يدعو لها محمد بن عبد الله ...

ولم يكن رفض أبي سفيان للدعوة إلا من قبيل متابعة العشيرة وإحترام رأيها ، وإلا فإنه لم يفكر فيما جاء به محمد ولم يناقشه مناقشة الراغب في الوصول إلى الحقيقة ، وقد أبان أبو سفيان عن موقفه هذا في الحوار الذي دار بينه وبين أبي جهل عندما كانا يجلسان في فناء الكعبة وقد مرّ بهما محمد ـ صلوات الله عليه ـ ، قال أبو جهل وهو يشير إلى محمد : هذا نبيكم يا بني عبد مناف !

فورم أنف أبي سفيان وقال : وتعجب أن يكون منا نبي ! فالنبي يكون فيمن أقل منا وأذلّ !

قال أبو جهل بخبث ولؤم : ولكن النبي ليس من بني عبد شمس يا أبا

سفيان ! وإني لأعجب أن يخرج غلام من بين شيوخٍ نبياً !

قال أبو سفيان : صدقت يا أبا الحكم .

أردف أبو جهل : ألست أحق منه بالنبوة يا أبا سفيان وأنت سيد قريش وشيخها ، وما الذي يبقى لكم من الأمجاد يا بني عبد شمس إذا ذهب بنو هاشم بهذا المجد الذي ليس بعده مجدٌ أبدا .

وأصاب كلام أبي جهل من نفس أبي سفيان موقعاً ، فعاوده ذلك الهاجس القبلي الذي إذا ران على القلب حجب عنه الحق والصواب .

وانصرفت قريش إلا أقلها إلى معاداة الدين الجديد ، ومع أن أبا سفيان انصرف إلى تصريف شئونه التجارية فإنه كان يتابع الأحداث ويشارك فيها ، ولكنها مشاركة دون تلك التي شارك فيها أبو جهل وأبو لهب وأمية بن خلف وأضرابهم من السادة .

مواقفه الأولى من الدعوة

بالرغم من أن أبا سفيان كان سيد بني أمية ، وكان معدوداً من السادة المقدمين في قريش ، وصاحب حربها ، إلا أن التجارة شغلته عن المشاركة المباشرة في معارضة الدعوة الإسلامية ، وزاد من تخفيف حدة هذه المشاركة خوف أبي سفيان على وحدة قريش أن تنفصم وعراها أن تُحل ، فقد كان أقرب إلى المهادنة منه إلى المعارضة ، لذا فإننا نرى أن مشاركته الشخصية فيها لم تعدُ الرمز ، إذ لم نسمع من ذلك سوى مشاركته لتلك الوفود التي كانت تذهب إلى أبي طالب تفاوضه في أمر محمد ليكفه عما يدعو إليه ٠

* * *

وكثيرا ما سمع أبو سفيان من أولئك الذين استمعوا للقرآن الذي يتلوه محمد عجباً من القول ، فهم رغم معارضتهم لمحمد وصفوا القرآن بالبلاغة والفصاحة والبيان وأن له سطوة على القلوب وهيمنة على العقول وسحراً في النفوس لا يدانيه في ذلك قولُ فصيح من الناس ولا بيان بليغ من البشر ٠٠٠

وعندما استمع أبو سفيان لشيء من هذا القرآن أعجب به وراق له ، فقد كان من قوم أهل بلاغة وفصاحة ، يهشون للقول الفصيح ويطربون للكلام البليغ ، ولم يكن هذا حال أبي سفيان وحده ، فقد كان هذا حال السادة من قريش والفصحاء والبلغاء فيهم بخاصة ٠٠٠

ولقد كان السادة يحاولون الانصات لهذا القرآن الكريم ، ولكن دون أن يحس بهم أو يشعر بهم أحد من العامة حتى لا يكون ذلك مدعاة لميلهم لمحمد

ودينـه الجـديـد ، بل إن هؤلاء السادة في محاولاتهم الانصات للقرآن الكريم كانوا يستخفون من بعضهم ، فكان الواحد منهم حريصاً في استراقه السمع أن لا يراه غيره من السـادة حتى لا يعيبـون ذلـك عليـه ويعيرونه به ، ولكن حلاوة القرآن وطلاوته ، وروعة معانيه ، وسموّ ما يدعو إليه جعلهم يندفعون لسـماعـه ، رغم محاذيـر ذلـك السـماع ... ولكنهم كانـوا بعـد ذلك يعودون ويستمعـون ، وقـد كان يصـدهم عن الإيـمان بهذا التنزيل مقامهم في قريش وخـوفهم أن يفقـدوا هذا المقـام ، وحسـدهم لمحمد وبني هاشم ، فقد كانوا ينظـرون إلى أمـر النبـوة من زاوية ضيقة متناهية في الضيق ، مظلمة مغرقة في الظـلام ، فقـد كانوا يظنون النبوة مكرمة دنيوية للمفاخرة بين القبائل ، وكان آخـرون منهم يرون أن النبـوة مهمـة يجب أن توكـل للأشياخ من أهل مكة أو الطـائف ، لا لفتى يتيم الأبـوين لم يكـونـوا يعـدونـه من عظـماء القـريتين ، ويقولون « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .



وكـان أبـو سفيان يحب أن يستمع للقرآن ، ويود لو يجد طريقة يستمع فيها إلى هذا الكلام الحكيم دون أن يراه محمد أو يحس به أحد من أهل مكة ...

ورأى أبو سفيان أن أسلم وسيلة لذلك أن يلوذ بظلام الليل ، فينسلّ من منـزلـه بعـد أن يأوى النـاس إلى مضـاجعهم ويسلمـوا أنفسهم إلى سلطان النوم ، فيذهب إلى بيت محمد ، فيركن إلى زاوية خلف جداره ، فيستمع لما يشـاء ويمكث هنـاك ما حلا له الاستـماع ، ثم ينصرف إلى بيته قبل أن يهب الناس من نومهم وينطلقوا إلى معاشهم ...

وجلس أبـو سفيـان تحت نافـذة بيت رسـول الله ـ ﷺ ـ يستمـع لتلاوة القـرآن ، فيقـع في قلبه موقعاً عظيماً ، ويأنس به حتى أنه تمرّ الساعات ذوات العـدد وهـو لا يشعـر أنهـا مرّت ، فيـدركه الفجر فيفزع إلى نفسه ، ويهرول عائداً من حيث أتى .

ويفـاجأ أبـو سفيـان وهـو في طريق عودتـه بسيد من سادة قريش ، فيقول دهشاً : من ؟ أبو الحكم بن هشام ؟ من أين وإلى أين ؟

قال أبو جهل : يبدو أنني أتيتُ من حيثُ أتيتَ يا أبا سفيان ؟

أبو سفيان : من عند محمد ؟

أبـو جهـل : نعم ٠٠ فقـد أحببت أن أسمـع هذا الكـلام الساحر الذي يدعوه محمد قرآنا ٠

وصمت أبـــو سفيـان ولم يجب بشيء ، وسـار مع أبي جهـل عائـدين إلى منـزليهـما ، ولكنهـما فوجئـا بعـد لحظـات بالأخنس بن شريق وهـو يسير كأنه يداري نفسه ويستخفي بها ؛ قالا معا : من ؟ الأخنس ؟

قال الأخنس : نعم ٠٠ من أرى ؟ أبا سفيان وأبا الحكم ؟

قالا : أمن عند محمد ؟

قال : نعم ولا ٠٠ لم أقـابله ولكني استمعت إلى تلاوتـه ، وأظنكـما كنتـما تفعلان ما أفعل ، فهذا الطريق الذي تسلكانه يدل على ذلك ٠

قالا : نعم ٠

وسار ثلاثتهم بصمت ، وكل منهم يشعر كأنه اقترف ذنبا عظيما ٠٠ وراحوا يتـلاومـون بالنظرات دون العبارات إلى أن حان الوقت ليذهب كل منهم إلى شأنـه ، عنـدئذ قال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في أنفسهم شيئا ٠

ومضى النهار بشؤونه وشجونه ، وعاد الليل يرخي سدوله ، فينتظر هؤلاء السـادة حتى إذا سجى الليــل عادوا لمواضعهم التي كانــوا فيهـا بالأمس ، فاستمعوا لتلاوة رسول الله لكلمات الله ، وأطالوا الاستماع ، حتى إذا تنفس الصبــح عادوا أدراجهم ، فالتقــوا كما التقـوا بالأمس ، فعـادوا للتـلاوم كرة أخرى ، ثم وعد كل منهم صاحبيه أن لا يعود لمثلها ، وقال أبو جهل يخاطب زميليـه : أخشى إذا رآنـا شبـاب قريش ونسـاؤهـا ظنـوا أننـا نميل إلى هذا

القـرآن ، فيميلون إليـه ، فإذا مالـوا إليـه تابعـوا محمـدا ، وإذا تابعوا محمداً خسرنا السيادة والرئاسة وآل كل ذلك إلى محمد وبني هاشم ٠

ولكن طلاوة القـرآن وحـلاوتـه ، وسمـو معـانيه وبلاغته ، وروعة التلاوة وصفـائهـا ، دفعت هؤلاء السادة لأن يذهبوا للمرة الثالثة ، فيفعلوا كما فعلوا في الليلتـين السـابقتـين ، ولما التقوا منصرفهم من أماكنهم ، ورأوا ماهم عليه من الإقبال على القرآن وسماعه ، قالوا : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود ٠

وتعاهدوا على ذلك ، ووثقوا العهود بالأيمان . . . وانصرفوا ٠

ومضى الأخنس إلى بيتـه ، وحـاول أن يأوي إلى فراشه لعله يأخذ قسطاً من النوم والراحة ، فقد قضى ليلته السابقة ساهرا مستمعاً للقرآن ، ولكنه لم يستطـع أن ينـام ، فقـد أهمه هذا القـرآن وشأنه ، وفكر فيما سمعه وحاول أن يأخذ فيه رأياً حاسماً قاطعاً فلم يستطع ، وأخيرا نهض من فراشه وحمل عصاه وانطلق إلى بيت أبي سفيـان ، فلما استقـر به المجلس قال : يا أبـا سفيان ، لقـد سمعنـا من محمـد كلامـاً يأخـذ بالألباب ويأسر الأفئدة ، فأخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ٠

قال أبـو سفيـان وهـو يهز رأسـه ويطلق نَفَسـاً حاراً : ومـاذا أقول لك عما سمعت يا أبا ثعلبة ؟ والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها وأشياء لا أعرفها ولا أعرف ما يراد بها ٠

قال الأخنس وكأنه وقع على مخرج مما هو فيه : وأنا والذي حلفت به ٠

وترك الأخنس أبا سفيان وذهب إلى أبي الحكم بن هشام المخزومي وسأله عما سمعه من محمد ورأيه فيه ٠

قال أبـو الحكم : تنـازعنـا نحن وبنـو عبـد منـاف الشـرف ، أطعمـوا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتي ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبدا ، ولا نصدقه !

* * *

وتتتابع الأحداث في مكة ، ويكثر أتباع الدين الجديد ، فتزداد قريش لهم تعذيباً وقهرا ، ويفقد رسول الله نصيره وعمه أبا طالب ، فتتجرأ عليه قريش ، وتنال منه ما لم تكن تجرؤ عليه في عهد عمه ، فيأمر الله رسوله بالهجرة إلى المدينة المنورة ...

وتعرف قريش بأمر الهجرة ، فتأتمر برسول الله وتقرر قتله ، ولكن الله يعصمه منهم ومن كيدهم ، فيهاجر ، ويهاجر الصحابة إلى المدينة ، ويبدأ عهد جديد للدعوة الإسلامية ...

أما سادة قريش فقد غاظهم أن يفلت من أيديهم صحابة رسول الله ، فقام أبو سفيان بن حرب على مرأى من الناس ومسمع وقال : إن فاتكم الرجال فقد خلفوا وراءهم البيوت والضياع ، فليستول كل منا على مال قريبه وحليفه ممن هاجر مع محمد ، وأنا أول من يفعل ذلك ، وأعلن لكم أني استوليت على دار حلفائي من بني جحش ، فهل من مشترٍ أبيعه هذه الدار ؟

قال عمرو بن علقمة : قد اشتريتها منك يا أبا سفيان .

قال أبو سفيان : اشهدوا أني بعت دار بني جحش لعمرو بن علقمة .

وبلغ بني جحش ما صنعه أبو سفيان بدارهم ، فذكر عبد الله بن جحش أمرها لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له : ألا ترضى يا عبد الله أن يعطيك الله بها داراً خيرا منها في الجنة ؟

قال : بلى يا رسول الله .

قال ـ عليه السلام ـ : فذلك لك .

عندئذ قال عبد الله موجهاً أبياته لأبي سفيان :

أبلغ أبا سفيان عن أمرٍ عواقبه ندامة
دار ابن عمك بعتها تقضي بها عنك الغرامة
وحليفكم بالله رب الناس مجتهد القسامة
اذهب بها ، اذهب بها طوقتها طوق الحمامة

* * *

وتنـادت قريش للتـداول في شؤ ونهـا بعـد أن خرج منهـا المسلمون ولم يبق معهم إلا رجل على رأيهم أو رجل مستخف بإيمانه لا يزعجهم بكلامه ٠٠٠

قال رجل ممن يؤخذ برأيه : احمدوا الآلهة أن خلصت مكة لكم وأصبحتم فيهـا بأمن وسـلام بعـد خروج الصُّباة فدعونا نلتفت إلى ما يصلح لنا معاشنا ودعونا نتدبر أمر ما أهملناه من تجارتنا ، فإنها حياتنا التي عليها نعتمد وبها يأتينا الغنى والرفاه ٠

قال آخر : أخشى أن يشتد ساعد محمد بمن ناصره من أهل يثرب ، فيكر علينا ويحاربنا بمن خرج معه ومن انضم إليه فيغلبنا على بلدنا وحرمنا ٠٠٠

قال ثالث : لابد لنا أن ندير الأمر بحكمة ، وندبر الأمور بروية ، ولنا من السـادة المنـاجيب أمثـال أبي سفيـان وأبي بن خلف وعمـرو بن هشـام من يستطيع أن يدبر أمورنا ويقينا شرّ أعدائنا ٠

وما إن نطق هذا الرجل برأيه حتى بدأ السادة يتجاذبون الآراء ويتداولون الخطط ويتطارحون الحلول ، وكل منهم يدلي بدلوه ويقول ما يرتئيه من رأي فيما عرضه القوم من أمور ٠

وكان مما اتفق عليه الملأ منهم أن يكتبوا كتاباً لأهل يثرب يحذرونهم فيه من نصرة محمد ومتابعته فيما يدعو إليه ويدعونهم للتخلي عنه حتى يحسموا الأمر معه ٠

فكتب أبـو سفيـان كتـاباً إلى الأوس والخزرج في يثرب يقول : أما بعد ، فإنـه لم يكن حيّ من أحيـاء العـرب أبغض إلينـا أن يكـون بيننـا وبينهم ثائرة منكم ، وإنكم عمدتم إلى رجل منا أشرفنا في الموضع وأعرقنا في قومنا منصباً فآويتمـوه ومنعتمـوه ، إن هذا عليكم لعـار ومنقصة ، فخلوا بيننا وبينه ، فإن يك خيرا فنحن أسعد به ، وإن يك سوى ذلك فنحن أحق من ولي ذلك منه ٠

وانتظـر أبـو سفيـان ومن معـه جواب الأوس والخـزرج ، وكـانـوا يؤملون أنفسهم ويمنـونهـا بالجـواب الـذي ترتاح له أنفسهم وتقرّ به بلابلهم ، ولكن

الجواب جاء على غير ما أملوا وعلى نقيض ما تمنوا ، فقد جاءهم الجواب بقصيدة من الشعر كتبها شاعر الأنصار كعب بن مالك يتوعدهم فيها بأنهم سوف يلاقون ما لا يحمدون إذا ما تعرضوا لرسول الله ولمن تابعه أو إذا أرادوهم بسوء . . . من أبيات هذه القصيدة :

فأبلغ أبا سفيان أن قد أضا لنا ... بأحمد نور من هدى الله ساطع
فلا تَرْعَيَنْ في حشد أمر تريده ... وألّب وجمّع كل ما أنت جامع
فدونك فاعلم أن نقض عهودنا ... أباه عليك الرهط حين تبايعوا

وأدرك أبو سفيان ومن معه أن الرياح تسير بما لا يشتهون ، وأن الأيام تخبىء لهم أحداثاً جساما وأموراً عظاما ، فأسرعوا إلى دار الندوة وعادوا مرة أخرى يبحثون فيما يصنعون ، واتفق الملأ منهم على أن الخطر الكبير سيأتيهم من قبل متجرهم ، فإذا ما فكر المسلمون في اعتراض قوافلهم التجارية فسوف يصيبهم من جراء ذلك بلاء عظيم ، فأجمعوا أمرهم على اختبار الطريق لعل الأمر لا يتعدى الهواجس والظنون .

أعد القوم سريّة وأوكلوا أمرها لصاحب حربهم أبي سفيان بن حرب ، وحددوا مهمتها باستكشاف الطريق التجاري وما يحفه من أخطار ، فسار بها أبو سفيان حتى أتى مكاناً يقال له أحياء بالقرب من رابغ على ساحل البحر الأحمر ، وهناك تحققت مخاوف قريش وصدقت ظنونهم ، فقد التقى أبو سفيان بسرية للمسلمين خرجت تتسقط أخبار قريش وترصد تحركاتها

ووقفت سرية قريش وعلى رأسها أبو سفيان بن حرب تقابل سرية المسلمين وعلى رأسها عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب في أول لقاء عسكري بين الكفر والإيمان .

ولما رأى أبو سفيان قلة من مع عبيدة من المسلمين راودته نفسه في محاربتهم لعله بذلك يخضد شوكتهم ويسجل لنفسه موقفاً تعرفه له قريش وتذكره له على مدى الأيام ، فأخذ ينظم صفوفه استعداداً للانقضاض ، وبينما هو منشغل بذلك فرّ من بين رجاله منضماً إلى المسلمين المقداد بن عمرو

البهـراني ، فكـبر المسلمـون تكبـيرا تجاوبت معه أمواج البحر وآفاق السماء ، وغـاظ ذلـك أبـا سفيـان ومن معـه ، وتشاءموا به ، ولكنهم لم يشاءوا أن يرى المسلمـون منهم ضعفـا ، فاستمروا في تحفزهم ، واستمر أبو سفيان في تنظيم صفـوفـه ، ولكن مفـاجـأة ثانيـة هزت كيـانهم وضعضعت معنوياتهم ، فقد ركض عتبـة بن غزوان المـازني فرسـه تاركـاً صفـوفهم منضـماً إلى أخـوته من المسلمـين ، فعـاود المسلمـون تكبـيرهم الـذي تجاوبت معـه الجبال والوديان ورددته معهم رمال الصحراء وذرات الماء ٠

وأدرك سعـد بن أبي وقـاص ـ رضي الله عنـه ـ ما أصـاب المشـركين من ذهول وانكسار ، فاستـل سهماً من كنانته ووضعه في قوسه وأطلقه صوب أبي سفيان وجمعه ، وكان هذا السهم أول سهم يطلق في سبيل الله ، وكان هذا السهم هو القشـة التي قصمت ظهـر أبي سفيـان وأوهنت من عزمـه ، فلوى عنان فرسه وانطلق بمن جاء معه عائدا إلى مكة ٠٠٠



لام القـرشيـون أبا سفيان لأنه لم يلتحم بالمسلمين ، فقصّ عليهم ما فعله المقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان مما جعله يغير رأيه ويعود بمن معه ، فقال له أحد الحاضرين : وماذا يؤثر على قوتكم هروب رجلين ؟

قال رجـل من السـادة : والله إني لأعلم أن الـذي منعـك من النزال يا أبا سفيـان خشيتـك من فرار المـزيـد من رجـالـك إلى المسلمين . . . فوالله إني لأخشى أن يكـون نصف الشبـاب ممن بقي معنـا في مكـة ممن يضمـرون إسلامهم ويستخفون به إلى أن تحين الفرصة فينضمون إلى محمد ٠

قال واحد ممن كان مع أبي سفيان في سريته : ومع كل ماحدث فقد كانت هذه السرية كثيرة النفع لنا ٠

قالوا : وكيف ؟

قال : لقد علمنا أن محمداً لن يتركنا نسيرّ تجارتنا دون أن يعترضها ويحاول

الإستيلاء عليها ، فعلينا أن نكون على حذر كلما أردنا أن نخرج في تجارة ، وعلينا أن نزيد في رجالنا الذين يرافقونها في رحلتها .

قال الجميع : ما عدوت الصواب يا أخا قريش ، لابد أن نزيد في الحراسة ونبالغ في الحذر ، وها قد فرغنا من الإعداد لقافلة الشام ، وقد وضعنا فيها زهرة أموالنا ، وقد وكلنا أبا سفيان أمرها ، فهو خير من يذهب بها ويرجع بها سالمة غانمة ...

وخرج أبو سفيان في قافلة لم يسبق لقريش أن جهزت مثلها ، فقد اشترك فيها كل من له شيء من المال قلّ أو كثُر ، وحُمل ذلك كله على ألف بعير ، ورافق هذه القافلة أربعون فارساً من أمهر فرسان قريش ، وسارت القافلة في حذر تقطع المسافات القصيرة في الزمن الطويل ، لا تسير في درب حتى يستبرئها لها الطلائع والعيون ، واستطاعت بذلك أن تتفادى دورية المسلمين التي خرجت لاعتراضها .

ونجحت القافلة في الوصول إلى غايتها ، وفي الشام باع أبو سفيان ما حملته قافلته من بضائع ، واشترى من بضائع الشام ما يروج في مكة وما جاورها من بلاد ، ثم حزم أمره وقفل راجعاً إلى مكة .

وكان ظن أبي سفيان صائباً ، فقد خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمسلمين لاعتراض القافلة ، وخرج من المسلمين مع الرسول ما يقرب من ثلاثمائة مجاهد ، كلهم يأمل أن تكون قافلة أبي سفيان غنيمة للمسلمين يعوضون بها ما أخذه أهل مكة من أموالهم ويتقوون بها على أعدائهم .

وكان أبو سفيان كلما اقترب من المدينة يزيد في حذره ويبالغ فيه ، وأخذ ينشر عيونه وطلائعه يمنة ويسرة حتى لا يفاجأ بالمسلمين ، وعندما وصلت القافلة إلى نقطة هي أقرب ما تكون إلى المدينة رفع أبو سفيان حذره إلى ذروته ، وقرر أن يستكشف الطريق بنفسه

وتقدم أبو سفيان بنفر من صحبه نحو ماء بدر ، وجال ببصره حول الماء فلم يجد ما ينبىء بالخطـر ، فتقـدم نحـو العـين فوجـد عنـدهـا مجديّ بن عمـرو الجهني ، وكان له عارفا ، فبادره بالتحية قائلاً : عم صباحاً يا أبا عمرو .

ونظـر مجدي نحـو القـادم ، فلما رآه واستيقنـه فوجىء به وقـال وهـو مندفع نحـوه : من ؟ صخـر بن حرب ؟ عمت صبـاحاً يا أبا سفيان ، ما الذي أتى بك ههنا ؟

قال أبو سفيان : جئت استبرىء الطريق لصحبي ، فهل رأيت أحداً ورد هذا الماء ؟

قال مجديّ : ما رأيت أحداً أُنكره ، إلا أني رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا في شنّ لهما ، ثم انطلقا .

وأتى أبـو سفيـان حيث أنـاخ الـراكبان ، فأخذ من أبعار بعيريهما ففته بين أصـابعـه ، فإذا فيـه النوى ، فالتفت إلى أصحابه وقال : هذه والله علائف يثرب ، لابد أن يكون محمد وصحبه قريباً من هذا المكان .

وأسرع أبو سفيان إلى حيث ترك القافلة ، وغير طريقها الذي كانت تسير فيه ، ووجهها نحو الساحل فسارت بمحاذاته مبتعدة عن الخطر الذي كادت أن تقع فيه .

ولم يكتف أبو سفيان بهذا الإجراء الأمني ، بل بالغ بالاحتياط فأرسل من لدنـه ضمضم بن عمـرو رسـولاً إلى أهـل مكـة يستنفـرهـم لنجـدة أمـوالهم ويعلمهم أن محمدا وصحبه قد عرضوا لها ، وأن الأخطار تكتنفها .

وانطلق ضمضم بن عمرو حتى أتى مكة ، فوقف ببطن الوادي وقد جدع بعيره وشق قميصه وحوّل رحله ، على عادة العرب إذا أرادوا أن ينذروا بعدو يقـترب خطـره ويدنو شره ، وصاح بأعلى صوته : يامعشر قريش ، اللطيمة اللطيمـة ، أمـوالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى أن تدركوها . . . الغوث الغوث أيها الناس ...

ومـا إن سمعت قريش استغـاثة أبي سفيان على لسان ضمضم بن عمرو حتى نفرت برجالها وأحلافها ، لم يتخلف في مكة أحد إلا لعذر .

وسار ألف مقاتل بقيادة عتبة بن ربيعة وزعامة عمرو بن هشام أبي الجهل والضـلال ، ينهبـون الأرض ويغـذون السير ليلحقوا أموالهم وتجارتهم قبل أن تقع غنيمة في أيدي المسلمين .

وسمـع رسـول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ بخروج قريش ، فترك أمر القافلة واهتم بالاستعداد لمقابلة القادمين لقتاله .
وأفلت أبو سفيان ونجا بقافلته ...

وعندمـا دخلت القـافلة مكة لم يجد أبو سفيان فيها سوى النساء والأطفال والعجائز وذوي الأعذار ، فهاله الأمر ، وخشي على قريش أن تصاب بسوء أو أن يحل بها مكـروه ، فاستـدعى قيس بن امـرىء القيس ، وأرسله برسـالة إلى النفـير يقـول فيهـا : إنكم إنـما خرجتم لتمنعـوا عيركم ورجـالكم وأمـوالكم ، فقـد نجـاهـا الله ، فارجعوا ، فلا حاجة لكم فيما وراء ذلك ، فارجعوا ، ولا تجزروا أنفسكم أهل يثرب .

ولمـا بلغت الـرسـالـة عتبة بن ربيعة صادفت هوى في نفسه ، ولقيت قبولاً لدى عقلاء القوم ، فمالوا للعودة وحبذوها .

وعنـدمـا علم بالأمر أبو جهل أبى واستكبر ، وأقسم أن لا يرجع حتى يرد بدراً فيلاقي محمدا أو يقيم الأفراح فيها ثلاثاً لتبقى قريش مرهوبة الجانب بين قبائل العرب جميعا .

وأسرع قيس بن أبي قيس عائداً إلى أبي سفيان ليخبره أن قريشاً عزمت على المضيّ حتى تلاقي محمدا ، فاغتم لذلك وقال : واقوماه ! ! هذا عمل عمـرو بن هشـام ، كره أن يرجـع لأنـه ترأس على النـاس فبغى ، والبغي منقصة وشؤم ، إن أصاب محمد النفير ذللنا .

وانتـــاب أبـــا سفيـــان القلق وركبـــه الهم ، وخشي أن تدور الـــدائـــرة على قريش ، وعندما تذكر أن من بين المحاربين الولد وابن العم عظم القلق وكبر الهم •

وأخـــذ أبـــو سفيـــان ومن كان معـــه يخرجـــون في كل يوم إلى ظاهـــر مكـــة ، يتسقطـــون الأخبـــار ويسألـــون الركبان ، ولم يرعهم إلا بنو زهرة عائدين وليس معهم من غيرهم أحـــد ، فهـــرعـــوا إليهم مستفســـرين ، فقال سيدهـــم : لقد نجّى الله لنـــا أمـــوالنـــا ، وخلص لنـــا صاحبنـــا الذى صحبكم ، وإنما خرجنا لنمنعه ومالنا ، فلم نجد للحرب موضعاً فعدنا •

ونظـــر أبـــو سفيان إلى بني زهرة في حنق وقال : اذهبوا يابني زهرة فلستم في العير ولا في النفير (١)

ولم يطـــل الانتظـــار بأبي سفيـــان ومن في مكـــة ، فقـــد قدم إليهم من بدر الحيسُمان بن عبد الله الخزاعي ، فاندفع الناس إليه يستفسرون عن النفير ، فقال أبو سفيان : ماوراءَك ياحيسمان ؟

قال الحيسمان : شرٌّ والله مستطير ، قُتل عُتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو الحكم بن هشـــام وأميـــة بن خلف وزمعـــة بن الأســـود ونبيـــه ومنبـــه ابنـــا الحجـــاج وأبو البختري بن هشام و. . . . .

قال أحـــد الحـــاضـــرين : انظر ما تقول أيها الرجل ، فهؤلاء الذين ذكرت سادة مكة وأشرافها وأهل النجدة فيها •

قال الحيسمان : قد بلغك الذي قلت ، وإنه واللات للصدق •

قال قائل منهم : دعوا الرجل ، فلربما رأى فزعاً فهذى•

قال الحيسمان : والله ما قلت لكم إلا ما رأيته بعيني•

---

(١) من طريف ما يروى بمناسبة هذا المثل أن كلاماً جرى في الاسلام بين يزيد بن معاوية وبين عمرو الأشدق ، فقال عمرو ليزيد : اسكت ، فلست في العير ولا في النفير ، فقال يزيد لجلسائه : إن هذا الأحمق سمع كلمة فأحب أن يتمثل بها ولم يُحسن أن يضعها في موضعها ، يقول لي : لست في العير ولا في النفير وصاحب العير جدي أبو سفيان وصاحب النفير جدي عتبة بن ربيعة •
انظر أمالي الزجاجي ص ١٦٥

قال أبو سفيان : قل لي يا حيسمان ماذا فعل ولداي حنظلة وعمرو ؟

قال الحيسمان : أما حنظلة فقد قتله علي بن أبي طالب ، وأما عمرو فقد أُخذ أسيرا .

اعتصر الألم قلب أبي سفيان ، فقد أصيب في ولده وأقربائه وعشيرته ، وودّ لو استطاع أن ينفس عن كربه بزفرة أو شهقة ، ولكنه نظر حوله فلم تقع عينه إلا على زوج لقتيل أو ابن لصريع ، فكتم ما به وأوصى الناس بأن يكتموا آلامهم ويخفوا أحزانهم .ويستقبلوا العائدين بقلوب صابرة ونفوس ثابته ...

القائد والزعيم

كانت الأحـداث التي أسفـرت عنهـا معركة بدر مزلزلة لقريش ، فقد قتل فيهـا وجـوه قريش وسـادتهـا ، ولم يبق من هؤلاء الساده سوى أبي لهب وأبي سفيـان ، وأمـا أبـو لهب فقـد كان مريضـاً مرضاً أقعده عن المشاركة في بدر ، وسـرعـان ما مات ، فلم يبق لقـريش من زعـمائهـا الـذين كانت تركن إليهم وتعتمد على رأيهم سوى أبي سفيان بن حرب .

وهكذا فقد أتت الزعامة أبا سفيان وكأنها انقادت إليه طائعه مختاره ، وقد كان أبو سفيان يتمنى هذه الزعامة ويعمل لها ويرجو أن ينالها ، ولكنه لم يكن يتوقع أن تصل إليه عن هذا الطريق الوعر وبهذه الصورة المأساوية .

اذن لقــد غدا أبـو سفيـان بين عشيـة وضحـاهـا زعيم قريش بلا منـازع جدّيّ ، فإذا أضفنـا إلى ذلـك أنه صاحب الحرب فيها وراثة عن آبائه ، فقد أدركنا أن أبا سفيان أصبح قائد المعارضة السياسية والحربية ضد الإسلام والمسلمين .

والتف حول أبي سفيـان نفـر من شباب قريش هم من أبناء هؤلاء السادة الـذين قُتلوا في بدر ، على رأسهم عكـرمـة بن أبي جهل وصفوان بن أمية بن خلف ، وقد شكلوا في الوقت نفسه الجانب المنافس لزعامة أبي سفيان ، ومن هذا الـوجـه كان لهم تأثـير كبـير على القـرارات التي كانت تُتخـذ في شؤون الحرب خاصة .

وتنادى هؤلاء إلى اجتماع في دار الندوة ليروا رأيهم فيما آلت إليه أمور قريش وفيما يصنعون في أمر الحرب مع محمد ...

* * *

أغلق أبو سفيان دار الندوة على النفر الذين أصبحوا موضع المشورة والرأي في قريش ، وأخذوا يتداولون في الوضع الجديد لقريش ، فقد كان أمامهم أمور عاجلة لابد أن يروا فيها رأياً حازماً قاطعاً حتى تبقى عرى قريش مشدودة وسمعتها بين القبائل ثابتة راسخة لا تتزعزع :

ماذا يفعلون بالأسرى الذين وقعوا في أيدي المسلمين ؟

كيف ينتقمون لقتلى بدر ؟

كيف يؤمنون الطرق التجارية وقد غدت تحت رحمة المسلمين وسيطرتهم ؟

هل يسمحون لذوي القتلى بالبكاء والنوح على قتلاهم أم يأمرونهم بالصبر على المصاب ؟

وفي أثناء هذه المشاورات التي كانت تجري في داخل دار الندوة كانت الجموع خارج الدار في انتظار ما تسفر عنه هذه المشاورات ، ومع هذا الانتظار فقد كانت هذه الجموع تدلي بآرائها وتناقشها فيما بينها ، تزجي بذلك الوقت ، وتنفّس عما في صدورها ...

قال قائل من السادة المجتمعين فى دار الندوة : أرى أن نجمع هذه الأموال التي أتى بها أبو سفيان من تجارته إلى الشام فنرصدها للإعداد لحملة حربية نغزو بها محمدا ، فلعلنا نصيب منهم كما أصابوا منا يوم بدر ، فنكون قد أصبنا ثأرنا وانتقمنا لقتلانا .

ووجد هذا الرأي استحساناً وقبولاً ...

قال آخر : إن لي رأيا في أمر هؤلاء القتلى ، فإني أرى أن نأمر كل من

أصيب له رجل في بدر أن يكتم آلامه ويداري أحزانه خشية أن يشمت بنا محمد وأصحابه إذا نُحنا عليهم وبكيناهم •

قال آخر : نِعم ما رأيت ، إن هذا لهو الرأي ••

قال ثالث : أرى أن نرسل في كل ناحية سريَّة تكشف الطريق ، وأن نوالي إرسال السرايا حتى لا نُفاجأ بجيش محمد ، وإذا عزمنا على إرسال قافلة تجارية عملنا على تكثيف هذه السرايا وزدنا في الحراسة وبالغنا فيها •

قال رابع : أرى أن لا نسارع في فداء الأسرى ، وأن نلوذ في هذا الشأن بالتجلُّد والصبر ، فلعلنا نصيب من المسلمين فرصة فنأسر منهم فنفك أسيراً بأسير •

ونظر الحاضرون إلى أبي سفيان ، فإنهم ينتظرون رأيه في كل ما قالوا ، عندئذ وقف أبو سفيان معلنا موافقته على كل ما قرروا ، ثم صاح بنبرة حماسية مؤثرة : أعاهدكم يامعشر قريش أن لا يمس رأسي غسل من جنابة حتى أغزو محمدا •

وبنبرات الاستحسان أعلن الجميع رضاهم عن أبي سفيان واطمئنانهم إلى قيادته وزعامته ، وخرجوا من دار الندوة وراءه ليعلن على الناس القرارات التي اتخذوها :

لا تنوحوا على قتلاكم حتى لا يشمت بنا محمد •

لا ترسلوا في فداء الأسرى لعلنا نصيب من محمد فرصة فنفك أسرانا بأسراهم •

كل الأرباح التي جنيناها من قافلة الشام تخصص للاعداد لحرب محمد في حملة كبيرة للانتقام •

وانصرف الناس بين راض عن هذه القرارات منفذٍ لها ، وبين ساخط عليها ولكنه لا يستطيع مخالفة أوامر السادة ولا يستطيع الخروج عن أجماع قومه •••

وعندما وصل أبو سفيان داره وعلمت زوجه هند بالذي اتخذوه من قرارات

وبالذي وعد به أبو سفيان أعلنت رضاها عن زوجها وقالت له : أما أنا يا أبا سفيان فإني أقسم باللات والعزى لئن أظفرني الله بحمزة لآكلن كبده ، فليس هناك من أمر يطفىء النار التي تتقد في كبدي على أبي وأخي سوى ذاك .

* * *

لم يستطع أهل مكة أن يكبتوا حزنهم على قتلاهم في بدر أكثر من أيام ، فقد تقرحت أكبادهم واحترقت قلوبهم ، وودوا لو سُمح لهم بالبكاء لعله يشفي أكبادهم ويطفىء نار قلوبهم ، ويبدو أنهم ضاقوا بما هم فيه وأخذوا في التماس أوهى الأسباب لكي يبكوا على الأحبة الذين ذهبوا فذهب بذهابهم الصفو والهناء .

وبينما كان الأسود بن المطلب خارجاً ليلا لينفّس عما يجده في كبده من حر المصيبة سمع امرأة تبكي وتنوح ، فقال لغلام له : انظر هل أُحل النحب ؟ هل بكت قريش على قتلاها ؟ فإني أود أن أبكي على أولادي الثلاثة ؛ زمعة وعقيل والحارث ، فإن جوفي قد احترق !

فلما رجع الغلام قال : إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلّته !

قال الأسود : أعلى بعيرها تبكي أم اتخذت ذلك ذريعة لتبكي على قتيل لها في بدر ؟ لست أدري أي قرار هذا الذي يمنع الحبيب أن يبكي حبيبه ؟ وأي حكمة في ذلك ؟ حقاً إنّ دهرا جعل أبا سفيان سيدا فينا لهو دهر سوء ، ولولا من ذهب من السادة في بدر لما وجدنا أبا سفيان سيداً مطاعاً فينا ، ثم أنشد :

أتبكي أن يضلَّ لها بعير ... ويمنعُها من النوم السُّهودُ (١)
فلا تبكي على بكر ولكن ... على بدرٍ تقاصرت الجدودُ
على بدرٍ سراة بني هُصَيصٍ ... ومخزومٍ ورهطِ أبي الوليدِ
وبكّي إن بكيت أبا عقيل ... وبكي حارثاً أسدَ الأسودِ

(١) السيرة النبوية لأبي الفداء اسماعيل بن كثير ، المجلد الثاني ص ٤٨٠

وبكّيهم ولا تَسَمي جميعاً … وما لأبي حكيمة من نديدِ[1]
ألا قد ساد بعدهم رجال … ولولا يوم بدرٍ لم يَسودوا

وعندما بلغ أبا سفيان ما قاله الأسود ، وما عرّض به من سيادته على قريش ، أنكر عليه قوله وأنشد مفتخراً بقومه منوهاً بمكانهم ومكانتهم بين قبائل قريش :

لقد علمت قريش غير فخرٍ … بأنا نحن أجودهم بنانا[2]
وأكثرهم دروعاً سابغاتٍ … وأمضاهم إذا طعنوا سنانا
وأدفعهم عن الضراء عنهم … وأبينهم إذا نطقوا لسانا

* * *

تداول القرشيون في شأن الأسرى مرة أخرى في واحد من اجتماعاتهم التي اعتادوا ان يعقدوها في فناء الكعبة ، فقالوا : لا تعجلوا بفداء أسراكم لا يأرب عليكم محمد وأصحابه ، فقال المطلب بن أبي وداعة ، وكان أبوه في الأسرى ، صدقتم لا تعجلوا ٠

ولما جنَّه الليل انسلَّ وقدم المدينة وأخذ أباه بأربعة آلاف درهم ٠

ولما علمت قريش بالذي فعله ابن أبي وداعة أرسلوا في فداء أسراهم ، فتقاطرت الوفود على المدينة ، وكل منهم يحمل فداء ذويه ٠٠٠

ولما رأى القرشيون أن أبا سفيان لم يرسل في فداء ابنه عمرو قالوا له : ألا ترسل يا أبا حنظلة في فداء ابنك عمرو ؟

قال : لن أفعل.

قالوا : ولم ؟

قال : أيجتمع عليّ دمي ومالي ! قتلوا حنظلة وأفدي عمراً ؟ ! ، دعوه في أيديهم يمسكوه ما بدا لهم ٠

---

(١) في الأبيات عيب من عيوب القافية وهو ما يسمى بالإقواء ، وهو اختلاف حركة الرويّ فالملاحظ هنا أن البيتين الأول والثاني مع البيت السادس مضمومة بينما الأبيات الأخرى مكسورة

(٢) البنان : الأصابع وأراد هنا الكف واليد

وأضمر أبو سفيان في نفسه أمرا ... لقد نوى أن يأسر واحداً من المسلمين ممن يفدون إلى البيت معتمرين ، فيفك به أسيره ...

ولم يلبث أبو سفيان إلا قليلا حتى واتته الفرصة ، فقد قدم مكة واحد من المسلمين اسمه سعد بن النعمان بن أكّال ، يريد العمرة ، فعدا عليه أبو سفيان وحبسه .

وأعظم أهل مكة فعلة أبي سفيان ، فذهبوا إليه وقالوا له : ما الذي فعلته يا أبا سفيان ؟ ألم نتعهد للعرب جميعاً أن لا نعرض لأحد جاء حاجاً أو معتمرا إلا بخير ؟

قال أبو سفيان : إنها الحرب ، ولا بد أن أفك عمراً بلا فداء ، ولا سبيل إلى ذلك غير الذي فعلت ، ثم أنشأ يقول :

(١)

أرهط ابن أكّالٍ أجيبوا دعاءه ... تعاقدتمُ لا تسلموا السيّد الكهلا

فإن بني عمرو لئام أذلةٌ ... لئن لم يفكوا عن أسيرهم الكبْلا

وسرعان ما وصل البيتان الرسالة إلى المدينة ، فأسرع حسان بن ثابت شاعر الإسلام فردّ على أبي سفيان قائلاً :

(٢)

لو كان سعد يوم مكة مُطلقاً ... لأكثر فيكم قبل أن يؤسر القتلا

بعضبٍ حسامٍ أو بصفراء نبعةٍ ... تحنُّ إذا ما أُنبضت تحفزُ النبلا

أما ذوو سعد الأسير فقد مشوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان ليفكوا به أسيرهم ، فاستجاب لهم رسول الله ، فأرسلوا عمراً إلى أبي سفيان فخلّى سبيل سعد .

وهكذا رسم أبو سفيان في هذه الحادثة طريقه في معاملة المسلمين في حربه

(١ ، ٢) السيرة النبوية لابن كثير ، المجلد الثاني ، ص ٤٨٣

معهم ، فإنه لن يترك طريقاً مهما كان معيباً ومستهجنا إلا وسيطرقه ويسلكه معهم ٠٠٠

* * *

ولم تنته عملية فك الأسرى دونها حوادث ، فحادثة سعد بن النعمان لم تكن وحيدة ، فقد حدثت حادثة أخرى تدلنا على أن المشركين لن يرقبوا في مسلم إلّا ولاذمة ، أكان ذكراً أم أنثى ، صغيرا أم كبيرا ٠٠٠

فقد طلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أبي العاص بن الربيع ـ وقد كان أسيراً ـ أن يرسل زوجته زينب بنت رسول الله إلى المدينة ، وأخذ عليه عهداً بذلك ، فلما وصل أبو العاص إلى مكة طلب من أخيه كنانة بن الربيع أن يوصل زينب إلى ظاهر مكة ويسلمها إلى اثنين من الصحابة أرسلهما رسول الله ليصحباها إلى المدينة ٠

خرج كنانة ومعه قوسه وسهامه بزينب في هودجها ، وسار بها نهاراً ليوصلها إلى ظاهر مكة حيث ينتظرها صحابيان جليلان ، ولم يدر في خلد كنانة أن قريشاً ستعرض له محاولة منعه ، ولكنه ما كاد يسير إلا قليلا حتى لحق به جماعة من سفهاء مكة ، وتقدم أشقاهم ، هبار بن الأسود ، فروّع برمحه بنت رسول الله ، وكانت حاملاً ، فأسقطت ما في بطنها ، ولما رأى كنانة ما فعله السفهاء ، نثر سهامه وشدّ قوسه وقال لهم :

والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهماً ٠

فتكأكأ الناس عنه ، ولكنهم لم يبعدوا ، وظلوا يهدِّدونه ٠٠٠

ولما علم أبو سفيان بما حدث ، أسرع في جماعة من عقلائهم ليتداركوا الأمر قبل أن يصبح فضيحة تسبهم بها العرب ، ولما رأى كنانة متحفزاً للقتال وقد أحاط به سفهاء قريش صاح به : أيها الرجل ، كفّ عنا نبلك حتى نكلمك ٠

قال كنانة : كفَّ سفهاءك عني ثم تكلم ٠

وأشار أبو سفيان للقوم ان ارجعوا ، وتقدم من كنانة وقال له : إنك لم تُصب ، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية ، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس إذ خرجت بابنته إليه علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا ، أن ذلك عن ذلّ أصابنا ، وأن ذلك ضعف منا ووهن ، ولعمري ما لنا بحبسها من أبيها من حاجة ، وما لنا من ثؤرة ، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أنْ قد رددناها فَسُلَّها سراً وألحقها بأبيها .

ولم يرَ كنانة في ذلك من بأس ، فعاد بزينب إلى منزله انتظاراً لقدوم الليل.

وعندما سمعت هند بنت عتبة بما حدث خرجت لتشاهد ذلك ، فالتقت بأبي سفيان ومن معه عائدين ، فنظرت إليهم نظرة ساخرة ، وتهانفت وقالت :

أفي السلم أعياراً جفاءً وغلظة وفي الحرب أشباه النساء العوارك !

قال لها أحد المرافقين لأبي سفيان : دعينا من دعابتك ياهند ، ثم نظر إلى أبي سفيان وقال له : كف عنا زوجك .

وضحك أحد الرجال وقال لها : لا تخشي شيئاً ، فغداً تكون زينب قد انطلقت إلى أبيها سالمة ... ومحمد لا يفعل بالنساء كما فعلنا !

* * *

رأى أبو سفيان أن أمر قريش إلى اضطراب ، فهي لم تستجب لندائه وتكتم أحزانها ، ولم تستمع لأمره فتحجم عن فداء أسراها ، وها هي ذي بعد أن هزمها الرجال في بدر تتعرض للنساء ، فلا بُدّ إذن من عمل يعيد لها تماسكها وثقتها بنفسها ، ولا بد أن يكون هذا العمل بمبادرة منه حتى تضع فيه ثقتها المطلقة لكي يستطيع أن يجمعها على حرب محمد .

إن أفضل عمل في هذا المجال هو تنفيذ ما وعد به قريشاً في دار الندوة ... فقد مرت عليه الأيام سراعاً وهي ممتلئة بالحوادث التي حجزته عن

تنفيذ هذا الوعد ، وقد حان الآن موعد التنفيذ وإنجاز الوعد وتحقيق الوعيد .

نادى أبو سفيان في قريش أنه سيغزو محمدا ، ودعا فرسان قريش وأبطالها ليكونوا معه في هذه الغزوة .

واختار أبو سفيان مائتي فارس وأمرهم بالتجهز للانطلاق إذا جن الليل ، فإنه يريد أن يعمي الأخبار عن المسلمين ليفاجئهم وينال منهم .

وعندما اجتمع الفرسان في المكان الذي واعدهم فيه جاءهم بجهازه الحربي مستعداً كأنه سيلاقي عدوه بعد ساعة ، وقبل أن ينطلق جمعهُم أخذ يحرضهم على الانتقام لقتلى بدر ويمنيهم النصر السهل والغنائم الوفيرة ، ويذكرهم بالوعد الذي قطعه على نفسه بأن لا يقرب النساء ولا يمس جلده غسل من جنابة حتى يغزو محمدا ، وأن هذه الغزوة تحقيق لذلك الوعد ، وأخذ ينشد :

كروا على يثرب وجمعهم	فإن ما جمعوا لكم نفل (١)
إن يك يوم القليب كان لهم	فإن ما بعده لكم دُول
آليت لا أقرب النساء ولا	يمسُّ رأسي وجلدي الغُسُل
حتى تُبيروا قبائل الأوس	والخزرج ، إن الفؤاد مشتعل

ومضى أبو سفيان بصحبه يستخفون عن عيون المسلمين ويبالغون في الاستخفاء حتى إذا وصلوا إلى جبل بالقرب من المدينة يقال له « نيب » أمر جنده أن يكمنوا ويستخفوا حتى يأتي يهود بني النضير لعله يجد عندهم عوناً ولديهم رأياً فيما هو مقدم عليه أو يعرف منهم من أخبار المسلمين ما يعينه على مباغتتهم والنيل منهم ، فإنه لم يأت للصدام المباشر فإن من أتى بهم معه لا يكفون لذلك ، إنما أتى براً بوعده ، ورفعاً لمعنويات قومه ، وإشعاراً للمسلمين بأن هزيمتهم في بدر لن تذهب دون انتقام .

* * *

(١) محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٢ ص ٣٠٠

ويوم القليب هو معركة بدر حيث جمع المسلمون قتلى المشركين وألقوهم في القليب (البئر)   تبيروا : تهلكوا .

وفكر أبو سفيان فيمن يطرق بابه من يهود في هذا الوقت من الليل ، أيذهب إلى حيي بن أخطب أم إلى سلام بن مشكم ، فهما سيدا بني النضير وصاحبا الأمر والنهي فيها ، واستقر رأيه على حيي بن أخطب ، فهو المقدم على صاحبه ، وهو السيد المطاع في قومه ...

وانسلّ أبو سفيان حتى أتى منزل حيي بن أخطب ، فطرق بابه ...

وفزع حيي عندما سمع الطرق على بابه في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ، وقال في نفسه : من ترى يكون الطارق في مثل هذه الساعة أعدو أم صديق ؟ ، وحق يهود لا يطرقنا في مثل هذا الوقت إلا عدو ، واقترب من الباب وسأل بصوت متهدج : من .. من الطارق ؟

ورد أبو سفيان : أنا أبو سفيان بن حرب ، افتح يا حيي .

قال حيي لنفسه : ما الذي أتى بابن حرب من مكة في هذه الساعة ... إنه لم يأت لخير يهود ، إنه ابن عم محمد ، ولا أستبعد أن يكون اتفق معه علينا ، وجاءنا بحيلة خبيثة ليوقع بنا .

ولما استبطأ أبو سفيان رد الجواب قال : مالك لا تجيب ياحيي ؟

قال حيي : المعذرة يا أبا سفيان ، جئتني في وقت مريب ... والصباح قريب ، فاتني إذا أصبحت .

قال أبو سفيان : قبحك الله ما أجبنك ...

ولم يثن أبا سفيان ما لاقاه من فشل على باب حيي ، وقرر أن يجرب حظه مع شخص آخر من يهود ، فطرق باب سلام بن مشكم .

وصاح سلام من خلف الباب:من الطارق ؟

ورد أبو سفيان : أبو سفيان بن حرب .

ولم يجبن سلام كما جبن حيي ، ففتح الباب لأبي سفيان ورحب به ، ودخل معه إلى مجلسه ، واحتاط للأمر فأغلق الباب خلفه وأحكم الإغلاق ، ونبه حرسه لكي يأخذوا حذرهم حتي لا يكون في الأمر خديعة .

ولما استقر المجلس بأبي سفيان ، ودار الشراب ، قال سلام : ما الذي جاء بك إلينا في مثل هذه الساعة يا أبا حنظلة ؟

قال أبو سفيان : لقد أتيت غازياً لهؤلاء العصاة ومن آواهم ، فأنت تعلم ما الذي أصابنا منهم في بدر

قال سلام : قد والله أحزننا ما أصابكم ، وكنا نود لو كنتم من ذلك في عافية .

قال أبو سفيان : لعلمي بذلك جئتك مستنصحاً .

قال سلام : وماذا أستطيع أن أفعل لكم ؟

قال أبو سفيان : تبين لي عورات القوم ، وأعلم منك خبرهم .

قال سلام وقد انفردت أساريره : نعم ما أتيت له يا أبا سفيان ، وقد أتيتَ والله حليفاً لك ولكل من حارب محمدا ، وأما عن أخبار المسلمين وعوراتهم فعلى الخبير سقطت ، فهيا ندبر الأمر معاً حتى نوقع بهم وقعة تسمع بها العرب ويتحدث بها الناس ، فكم من الرجال معك يا أبا حنظلة ؟

قال أبو سفيان : معي مئتا محارب .

قال سلام : العدد قليل ، فلا تحدث بهم حرباً ، ولكن اغز بهم أطراف المدينة ، وأحدث أموراً تشعر بها المسلمين بوجودك ، وأنك قادر على الايقاع بهم متى أردت ، ثم انصرف مسرعاً ، وأعد العدَّة لغزوة كبرى تستأصل بها المسلمين ، فإنكم معشر قريش ذوو عَدَد وعُدَد ، وأهل نجدة وحرب .

وسرَّ أبا سفيان ما سمعه من سلام ، وخرج نشيطاً إلى جنده ، فأغار بهم على أطرف المدينة ، فحرق جملة من نخيلها ، وقتل اثنين من المسلمين ، ثم أصدر أمره لجنده بالإسراع بالانصراف حتى لا يُنذَربهم المسلمون فيلحقوا بهم .

وأسرع أبو سفيان بجنده عائدا إلى مكة ، ورأى أنه تحلل من وعده بهذه العملية ، وحث جنده على الاسراع ، وأمرهم بالتخلص من أزوادهم ـ وكانت من السويق ـ ليكونوا أقدر على قطع الطريق بالسرعة التي يريد .

وعندما علم المسلمون بأمر أبي سفيان أسرعوا خلفه ، ولكن أبا سفيان وجنده أعجزوهم هرباً ...

ولما رأى المسلمون السويق ملقى على طول الطريق سموا هذه الغزوة بغزوة السويق .

ولما اطمأن أبو سفيان إلى نجاته وجندَه ، أُفرخ روعه واطمأنت نفسه ، وأخذ يترنم بأبيات نظمها فيما فعله بالمسلمين في هذه الغزوة ، وفي مدح اليهودي سلام بن مشكم :

وإني تخيّرت المدينةَ واحداً	لحلفٍ ، فلم أندم ولم أتلَّوم
سقاني فروّاني كميتاً مدامةً	على عجلٍ مني سلام بن مشُكَم
سقاك أبو عمرو يجود ، وداره	بيثرب ، مأوى كل أبيض خضرم
ولما تولّى الجيش قلت ولم أكن	لأفرحه : أبشر بعزّ ومغنم
تأمّلْ ، فإن القوم سرٌّ وإنهم	صريح لؤي لا شماطيط جُرهم
وما كان إلا بعض ليلة راكب	أتى ساعياً من غير خلّة معدم

ودخل أبو سفيان مكة ، وحدث أهلها بالذي صنع ، ووعدهم أن يغزو بهم محمدا ، وأمرهم بالاعداد والاستعداد لذلك .

* * *

ولما رأت يهود أمر المسلمين يعلوا ويشتد في العُلو ، خافوا على مركزهم في المدينة ، وحسدوا الرسول على النبوة ، فشرعوا في التآمر على الرسول ودعوته وعلى الإسلام ودولته ، وتعددت مؤامراتهم وتشعبت دسائسهم ، فركب كعب بن الأشرف حتى أتى قريشاً وأخذ يغريهم ويحضهم على قتال المسلمين .

ورأى أبو سفيان في قدوم ابن الأشرف اليهودي إلى مكة فرصة يهتبلها ليجلو ما يخامره من شك في موقفه وموقف كثير من رجال قريش من دعوة الرسول ، فقال له : إنك يابن الأشرف من علماء يهود ، وأنتم معشر يهود

تزعمـون أنكم أصحـاب كتـاب سماوي وتعلمـون من أمر الدين والنبوة ما لا نعلمه ، فأناشدك أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وصحبه ؟

ولم يتردد ابن الأشرف في تفضيل الأصنام على الإسلام فقال : بل دينكم أحب إلى الله من دين محمد وصحبه !

وتهلل وجـه أبي سفيـان ، فقـد كان يحب أن يسمـع مثـل هذا الجواب ، وشجعه ما سمع لأن يتابع الأسئلة فقال : إنك لتعلم يابن الأشرف أنا نطعم الجـزور الكـومـاء ونسقي اللبن على المـاء ، ونطعم ما هبت الشـمال ، فأينـا أهدى وأينا أقرب إلى الحق ، نحن أم محمد ؟

قال ابن الأشرف : أنتم أهدى منهم سبيلا .

وأعـان ضلال بن الأشـرف عنجهيـة أبي سفيـان ، فنشـط القوم للاعداد لحرب عزموا أن تكون شاملة قاصمة ، تبيد المسلمين وتعصف بهم ...



وهب أبـو سفيـان لإعـداد العدة للحرب الضروس ، فخرج من مكة إلى من حوله من قبائل العرب يدعوهم للتحالف مع قريش على حرب محمد ومن تابـع محمـدا ، ويحثهم على النهـوض للمشـاركة في الحملة التي تعدها قريش لتغزو المدينة حتى تستأصل المسلمين وتَبيدهم ...

وبينـما كان أبـو سفيـان غارقـاً في أمـر هذا الإعـداد الكبيـر منشغلاً به عما سواه ، حدث في مكـة أمـر جلل كاد يودي بوحـدة قريش ويشعل الحرب بين أحيائها ويجعل من جهود أبي سفيان التي يبذلها للاعداد للحرب هباء منثورا .

فقد عدا هشـام بن الـوليد المخزومي على أبي أزيهر الدوسي فقتله لإحن كانت بين والـده وبـين الرجل ، وكان أبو أزيهر هذا حليف أبي سفيان (١) ، فلما علم يزيد بن أبي سفيان بما فعله هشام بحليف والده حمي له ، وجمع بني أميـة وحلفـاءها ليأخذ بثأر أبي أزيهر من قاتليه بني مخزوم ، وكادت الحرب أن تنشب بين الفريقين لولا أن أبا سفيان عندما علم بالأمر أسرع إلى مكة وهرع

(١) كانت ابنة أبي أزيهر الدوسي زوجاً لأبي سفيان

إلى ابنه يزيد وأخذ بتلابيبه وزجره قائلاً : أعمدت إلى أن تقتل قريش بعضها بعضاً في رجل من دوس ؟ سنؤتيهم العقل إن قبلوه .

ثم نادى بأعلى صوته : أيها الناس ، إن خلفنا عدواً شامتاً (يعني النبي والمسلمين) ومتى نفرغ مما بيننا وبينه ننظر فيما بيننا وبينكم ، فلينصرف كل إنسان إلى منزله .

وسمع الناس من أبي سفيان ، وتفرقوا .

وهكذا أطفأ أبو سفيان ناراً كادت تلتهم وحدة قريش وتقضي على كل جهد بذله في الإعداد لحرب المسلمين .

ولكن هذه النار التي خمدت كادت تشتعل من جديد عندما انبعث حسان ابن ثابت ، شاعر الرسول ، يحرض في دم أبي أزيهر ويعير أبا سفيان خفرته ويُجبِّنه

قال حسان :

غدا أهل ضوجى ذي المجاز كليهما	وجار ابن حرب بالمغمس ما يغدو (١)
ولم يمنع العيرُ الضروطُ ذماره	وما منعت مخزاة والدها هندُ
كساك هشام بن الوليد ثيابه	فأبْل وأخلف مثلها جدداً بعدُ
قضى وطراً منه فأصبح ماجداً	وأصبحت رخواً ما تخبُّ وما تعدو
فلو أنّ أشياخاً ببدرٍ تشاهدوا	لبلّ نعال القوم معتبط وردُ

وعندما وصلت هذه الأبيات مسامع أبي سفيان عرف أن حساناً يريد أن يشعل جمر الفتنة في قريش ، فما كان منه إلا أن صب على جمرها ماءً حين قال : يريد حسان أن يضرب بعضنا بعضاً في رجل من دوس ، بئس والله ماظن !

عندما اطمأن أبو سفيان لهدوء الخواطر في مكة عاد سيرته الأولى في

---

(١) جابي زاده فهمي ، حُسن الصحابة في شرح أشعار الصحابة ١٣٢٤هـ ، الجزء الأول ،
وفي ديوان حسّان بشرح البرقوقي ص ١٦٢ / ١٦٣ جاء الشطر الأول من البيت الأول هكذا :
غدا أهل حِضْنَي ذي المجاز بسُحرة ، وجاء البيت الثاني خامساً .

الإعداد لمعركة الثأر للأشياخ الذين قتلوا يوم بدر ، واستطاع أن يؤلب القبائل على المسلمين وأن يشرك عدداً كبيرا من رجالها في جيشه الذي يعده لهذه الحرب ، ولم يكن أبو سفيان بحاجة لتحريض أهل مكة على الاشتراك في هذا الجيش ، فما من أحد في مكة إلا وقد أصيب له واحد من أحبابه في بدر فهو في شوق لأن يثأر له ، لهذا اجتمع لأبي سفيان من الرجال والعتاد ماظن معه أنه بلغ الغاية في الإعداد وأن ما عند محمد من رجال وسلاح لا يقوم لما أعده من رجال وعتاد .



خرج أبو سفيان على رأس ثلاثة الاف من قريش ومن تبعها من قبائل العرب ...

وخرج مع السادة من قريش نساؤهم ، يشجعونهم على القتال ، ويثيرون فيهم نخوة الحفاظ على الحرم ...

خرج أبو سفيان ومعه زوجته هند بنت عتبة بن ربيعة .

وخرج عكرمة بن أبي جهل ومعه زوجته أم حكيم بنت الحارث بن هشام .

وخرج صفوان بن أمية ومعه زوجته برزة بنت مسعود بن عمرو الثقفية .

وخرج عمرو بن العاص ومعه زوجته ريطة بنت منبه بن الحجاج .

وسار هذا الجيش حتى نزل بالقرب من جبل أحد مقابل المدينة .

وخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسبعمائة من المهاجرين والأنصار حتى نزل في الجهة المقابلة لجيش أبي سفيان .

وأخذ أبو سفيان ينظم جيشه استعداداً للقتال ، واستدعى بني عبد الدار أصحاب اللواء ، وقال لهم يحرضهم على القتال : يابني عبد الدار قد وليتم لواءَنا يوم بدر ، فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فإما أن تكفونا لواءَنا ، وإما أن تُخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه .

قالوا : نحن نسلم إليك لواءَنا ! ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع .

واطمأن أبـو سفيـان إلى ما قاله القوم ، وعلم أنهم سيجتهدون في الحفاظ على لوائهم .

ثم نظم الخيـل ، وكـانت مئتي فرس ، فجعلهـا نصفـين ، ميمنـة وعليها خالد بن الوليد ، وميسرة وعليها عكرمة بن أبي جهل .

وأخـذ رسـول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ يُبَـوِّىءُ المسلمـين مقـاعـد للقتال ، فجعل أُحداً خلفه ، واختار خمسين من الرماة ، وجعل أميرهـم عبد الله بن جبـير ، وأوصـاه قائـلاً : انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتينّ من قبلك .

ودارت رحى الحـــرب ، وحمي وطيسهـــا ، فالتقى الجمعـان ، والتحمـوا بالسيوف ، وجال أبطال الإسلام في الميدان يحصدون أهل الشرك ويذيقونهم عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ...

ونـزل أبـو سفيـان يجالـد بسيفه ، فالتقى بحنظلة بن أبي عامر ، فتجاولا وتصـاولا ، فألقى حنظلة أبـا سفيـان أرضـاً وبـرك فوقه يريد أن يحتز رأسه ، فرآهما ابن شعوب (شداد بن الأوس) ، فأسرع منجدا أبا سفيان ، وأهوى بسيفه على عامر فقتله ، ونجا أبو سفيان من الموت .

وفـزع أبـو سفيـان لما أصابه ، فأسرع منهزما ، فدارت الدائرة على حزب الشيطان ، وتبعهم المسلمون يوسعونهم قتلاً ، ثم شرعوا باحتياز الغنائم ...

ولمـا رأى الـرماة النصر ، وشاهدوا المسلمين يجمعون الغنائم ، خالفوا أمر رسـول الله وأحبـوا أن لا يفـوتهم جمع المغانم ، فغلبت عليهم رغبة دنيوية ، فنزلوا من أماكنهم رغم تذكير أميرهـم بأمر رسول الله ...

واغتنمت خيـل المشـركـين الفـرصـة فدارت حول المسلمين وهاجمتهم من خلفهم ، وعاد المشركون إلى القتال ، وانقلبت الأوضاع رأساً على عقب ، ودارت الدائرة على المسلمين ، فقتل منهم عدد كبير ...

وانجلت المعركة عن قتلى من كبار الصحابة على رأسهم حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ، ونزلت هند إلى ساحة المعركة تبحث عن جثة حمزة ، فلما وجدتها بقرت بطنه وأخذت كبده تريد أن تأكل منها كما نذرت ، فلاكتها فلم تُسغها ، وامتلأ فمها بالدم كأنها وحش كاسر من ضواري الصحراء .

وجاء أبو سفيان ، فوقف على جثة حمزة ، ورأى ما تفعله زوجه هند ، فبدلاً من استنكاره لما تفعل أخذ يضرب برمحه شدق حمزة الشهيد ويقول : ذُق عُقق . . . ذُق عُقق .

وأسكرت الدماء هند وزوجها ، فوقفت هند على صخرة بالقرب من جثة حمزة ، ورفعت صوتها بانفعال مختلط بالفرح ، وأخذت ترتجز :

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سُعر
ما كان لي عن عتبة من صبر ولا أخي وعمه وبكري
شفيت نفسي وقضيت نذري شفيت وحشيّ غليل صدري

وكان أبو سفيان لا يزال يضرب برمحه في شدق حمزة ...

ومرّ به وهو على هذه الحال الحليس بن زبان سيّد الأحابيش ، فأنكر عليه فعلته القبيحة ، وقال : يا بني كنانة ، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحما !

وأحرج الحليس أبا سفيان ، وإن كان أبو سفيان يرى أنه لم يرتكب ذنبا ، ولكن لم يرد أن يروي عنه الحليس ما يعاب في عرف العرب ، فقال له يسترضيه : ويحك يا حليس اكتمها عني ، فإنها كانت زلة .

ووقف أبو سفيان منتفخ الأوداج ، قد أسكره النصر ، وسرّه ما سمعه من ابن قميئة إذ زعم أنه قتل محمدا ، فوقف على صخرة مشرفة وصاح بأعلى صوته : يوم بيوم بدر ، والأيام دول ، والحرب سجال ، يوم نُساء ويوم نُسر .

وصمت قليلاً لعله يسمع من يرد عليه ، فلما لم يسمع جوابا قال : أفي

القوم محمد ؟ أفي القوم محمد ؟ أفي القوم محمد ؟

قال رسول الله : لا تجيبوه .

قال أبو سفيان : أفي القوم ابن أبي قحافة ؟

فالتفت المسلمون إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأمرهم بالسكوت .

قال أبو سفيان : أفي القوم ابن الخطاب ؟

ولما لم يسمع جواباً التفت إلى جيشه وقال : أما هؤلاء فقد قُتلوا وقد كفيتموهم ، فلو كانوا أحياء لأجابوا .

فلم يملك عمر نفسه فقال : كذبت يا عدو الله ، أبقى الله عليك ما يحزنك .

فلمّا سمع أبو سفيان صوت عمر خاطبه قائلاً : أنشدك الله يابن الخطاب أقتلنا محمدا ؟

قال عمر : اللهم لا ، وهو الآن يسمع صوتك .

عندئذ قال أبو سفيان : حنظلة بحنظلة ، ويوم أحد بيوم بدر .

فرد عليه عمر قائلاً : لا سواء ، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار .

قال أبو سفيان ، اعلُ هبل . . . أعل هبل .

وصمت المسلمون ولم يجبه أحد ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أجيبوه .

قالوا : وماذا نقول ؟

قال : قولوا : الله أعلى وأجل .

فرفع عمر صوته قائلاً : الله أعلى وأجل .

فقال أبو سفيان : لنا العُزّى ولا عُزّى لكم .

فقال عمر بأمر رسول الله : الله مولانا ولا مولى لكم .

وبعد أن انتهت هذه المبارزة الكلامية قال أبو سفيان : إنكم ستجدون مثلة في القتلى والله ما رضيت وما سخطت ، وما نهيت ولا أمرت .

ولما همّ بالانصراف بدا له أن يتحدى المسلمين فقال : إن موعدكم بدر العام المقبل .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لرجل من أصحابه : قل : نعم هو بيننا وبينك موعد .

وانصرف أبو سفيان ، وأمر جيشه بامتطاء الإبل ، وانصرف عائدا إلى مكة ...

* * *

وأكثر أبو سفيان ، وهو في طريق عودته ، من الفخر بنفسه ، وأخذ يحدث القوم عن بطولاته ويعدد من قتلهم في ميدان المعركة ، ويبدو أن ذلك احفظ ابن شعوب ، فقال يذكره بإنقاذه من الموت المحقق بعد أن تمكن منه حنظلة الغسيل وكاد يحتزّ رأسه :

ولولا دفاعي يا بن حرب ومشهدي ... لأُلفيت ينوم النعف غير مجيب (١)
ولولا مكرّي المهر بالنعف فرفرت ... عليه ضباع أو ضراء كليب

ولما سمع أبو سفيان شعر ابن شعوب ومنّه عليه بإنقاذه ، قال يذكر ثباته وقتاله ومن أصابه من علية القوم من المسلمين :

ولو شئت نجتني كميت طِمِرَّة ... ولم أحمل النعماء لابن شَعوب (٢)
وما زال مهري مزجر الكلب منهم ... لدن غدوةٍ حتى دنت لغروب
أقاتلهم وأدَّعي : يا لغالبٍ ... وأدفعهم عني بركن صليب
فبكّي ولا تَرْعَيْ مقالة عاذلٍ ... ولا تسأمي مِن عَبْرَة ونحيب
أباك وإخواناً له قد تتابعوا ... وحق لهم من عبرة بنصيب
وسلّى الذي قد كان في النَّفس أنَّني ... قتلت من النجار كل نجيب
ومن هاشم قَرْماً كريماً ومصعباً ... وكان لدى الهيجاء غير هيوب

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، المجلد الثالث ص ٤١

(٢) السيرة النبوية لابن هشام و٣ ص ٢٥ ، ٢٦ ، والسيرة النبوية لابن كثير ، المجلد الثالث ص ٤١ ، ٤٢

فلو أنني لم أشف نفسي منهم لكانت شجىً في القلب ذات ندوب
فآبوا وقد أودى الجلاليب منهم بهم خَدَب من معبِطٍ وكئيب
أصابهم من لم يكن لدمائهم كفاء ولا في خطةٍ بضريب

قال رجل لم يعجبه هذا الفخر من أبي سفيان : والله يا أبا سفيان لقد جربناك في قيادة الحرب فما حمدناك .

قال رجل آخر ينكر على هذا الرجل كلامه : مه أيها الرجل ، أتقول هذا لشيخ قريش وصاحب حربها !

قال الرجل : وكيف لا أقول ذلك وقد أضاع منا فرصة العمر ؟

قال أبو سفيان : وما فرصة العمر التي أضعتها منكم يابن أخي ؟

قال الرجل : والله يا أبا سفيان إنك لم تصنع شيئا إذ تركت القوم وقفلت عائداً إلى مكة ، فقد أصبنا شوكتهم وحدهم ، ثم تركناهم ولم نستأصلهم ، وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لنا .

قال أبو سفيان : إن ما صنعته إنما هو من أجلكم ، لقد رأيت أنكم أُجهدتم ، وعلمت أنه لا طاقة لكم بإدامة القتال ، وخشيت إن استمرت الحرب أن يأتي المدد محمدا ، فهو قريب من أرضه ، ونحن منقطعون عن مكة .

قال الرجل : والله ما بنا من ضعف ، ولا نحس بالجهد ، وإن ما تقوله من ذلك إنما تبرر به ترددك وإيثارك السلامة !

قال أبو سفيان : أأنا كذلك في نظرك ؟

قال الرجل : لقد أرسلت رسلك إلى جيشنا في بدر تدعوهم للعودة وتكفهم عن قتال محمد وصحبه ففت ذلك في عضدهم وفرّق كلمتهم ، وذهبت في مئتي فارس لتغزو المدينة فاكتفيت بقتل رجلين ضعيفين وعددت ذلك نصرا ، ولما لحق بك محمد وصحبه فررت منهم وألقيت السويق تتخفف من ثقلك لكي يكون ذلك أسهل لفرارك ، فجعلتنا سخرية العرب عندما

قالـوا عن جيشنـا جيش السـويق ، وها أنت ذا تؤثر الانسحاب سالماً بنفسك مفلتاً فرصة لو اقتنصتها لدخلنا المدينة وأنهينا ما بناه محمد فيها من مجد وقوة ...

قال أبو سفيان للرجل : وترى أن نلوي أعناق الإبل ونعود إليهم فنصطلمهم .

قال الـرجـل : بل جنبـوا الإبـل وامتطـوا الخيـل ، وأسـرعـوا وبـالغوا في السرعة ، وفاجئوا عدوكم قبل أن يفيق من هول الضربة وقبل أن تبرأ جراحاته .

قال أبو سفيان لمن حوله من الرجال : أو ترون أنتم كذلك ما رآه هذا الرجل .

قال بعضهم : نحسب أن الرجل على صواب .

وقـال غيرهم : بل نرى أن نكتفي بما نلنـا من نصـر ، ونرى أن نعود إلى مكـة فنُقيم الأفـراح ونشـرب الخمـر ونسمـع غنـاء القيـان ، فتسمـع العرب بنصرنا ، فلا تزال تهابنا أبد الدهر .

قال الـرجـل : لو أردت العـودة للقتـال لم تستشر الناس ، ولكنت أمرتهم بأمرك ، فأنت السيد المطاع فيهم ، ولكنك تؤثر السلامة دائما ...

واستمر القوم في جدالهم . . . وأقاموا حيث هم ، فلا يعودون إلى المدينة ولا يسيرون إلى مكة ...

وسمـع رسـول الله بعزمهم على العودة ، فخرج بأصحابه الذين حضروا أُحداً رافضاً أن يصحبه غيرهم ، فسار بهم حتى انتهى إلى حمراء الأسد على ثمانية أميال من المدينة ، قريباً من جيش قريش .

ومـرّ بهم في موضعهم هذا معبـد بن أبي معبـد الخـزاعي ، فقـال لرسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يا محمد ، أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك في أصحابك ، ولوددنا أن الله عافاك فيهم .

ثم خرج من عنـدهم حتى أتى أبـا سفيـان بن حرب بالروحاء وهو لا يزال متردداً بين الإقدام والإحجام ، فلما رآه بادره بالسؤال : ما وراءَك يا معبد

قال معبـد : محمـد قد خرج في أصحـابـه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحـرقـون عليكم تحرقـاً ، قد اجتمـع من كان تخلف عنه في يومكم ، وندموا على ما صنعوا ، فيهم من الحنق عليكم ما لم أر مثله قط .

قال أبو سفيان : انظر ما تقول يا معبد .

قال معبد : والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل .

واهتـز أبـو سفيان لما سمع ، وخشي أن يدركه جيش الإسلام فيصيب من جنده المجهدين ما يضيع به زهوة النصر في أحد ، فأمر الناس بالرحيل ، وسار بهم في طريق يضلل به قوات المسلمين .

وبينما هو سائر يشتد في سيره مرّ به ركب من عبد القيس ، فتقدم نحوهم مسلماً وسائلاً : عمتم مساء أيها القوم ، إلى أين المقصد ؟

قالوا : عم مساء يا أبا سفيان ، إن طريقنا إلى المدينة .

قال : وماذا تريدون منها ؟

قالوا : نمتار لأهلنا من تمرها .

ورأى أبو سفيان أن يصنع شيئاً يرد له بعض اعتباره ، فقال للقوم : فهل أنتم مبلغون عني محمدا رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمل لكم إبلكم هذه غدا زبيباً بعكاظ إذا وافيتموها ؟

قالوا : نعم .

قال : فإذا وافيتمـوه فأخـبر وه أنـا قد أجمعنـا السـير إليـه وإلى أصحـابـه لنستأصل بقيتهم .

وعنـدمـا مرّ الـركب برسـول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ وهـوبحمراء الأسد وبلغوه رسالة أبي سفيان لم يزد على أن قال : حسبنا الله ونعم الوكيل .

* * *

يبدو أن الحرب أرهقت أبا سفيان ، فهو لا يرى فيها خيراً له أو لقومه ، وهي قد شغلته عن تجارته التي فيها معاشه ومعاش قريش ، فهو يود لو تنتهي هذه الحرب ، ولكنه في الوقت نفسه لا يرضى أن يسلّم بالنصر لمحمد ، ولا يرضى بالهزيمة لقريش

اذن لابد من طريق آخر غير الحرب يسلكه لهزيمة المسلمين ، ورأى بعد تفكير أنه لو استطاع أن يقتل محمداً لقضى بالهزيمة على المسلمين وكفى قريشاً شرّ الحرب وويلاتها •

وخرج أبو سفيان على قريش وهي في ناديها ، فوقف بين الرجال وقال : يا معشر قريش ، يا حلفاء قريش ومواليها ، أيها الناس ، لقد شغلنا محمد عن كل شيء حتى عن أنفسنا وأهلينا ، فهل أجد من بينكم من يذهب إليه فيقتله غيلة ؟ فإنه يمشي في الأسواق ويخالط الناس •

قال أعرابي : أنا له يا أبا سفيان ، أنا لهذا الأمر الجلل أيها القوم ، لقد وجدتم أجمع الرجال قلباً وأشده بطشاً وأسرعه شدا •

قال أبو سفيان : إليّ أيها الرجل

وقال أبو سفيان للرجل وقد أصبحا وحيدين : ما عندك لهذا الأمر ؟

قال الأعرابي : إن أنت أعنتني خرجت إلى محمد حتى أغتاله ، فإن معي خنجرا مثل خافية النسر ، أذهب إليه وحدي ، فإني هادٍ بالطريق خرّيت ، فإن أتيته وضعت خنجري في صدره حتي أقتله •

قال أبو سفيان : أنت صاحبنا ، إنك لها ، وإني مزودك ببعير ونفقة ، فاطو أمرك حتى عن أقرب الناس إليك

وبينما كان أبو سفيان يعيش أحلام التخلص من رسول الله وإنهاء الحرب التي طحنت قريشاً كان الأعرابي يقف بين يدي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد انكشف أمره وخاب سعيه ورسول الله يعفو عنه ويعرض عليه الإسلام ، فيقول الأعرابي : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، والله يا محمد ما كنت أفرُق من الرجال ، فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي

وضعُفت ، ثم اطلعت على ما هممتُ به ، فو الله ما سبقت به الركبان ، ولم يطلع عليه أحد ، فعرفت أنك ممنوع ، وأنك على حق ، وأن حزب أبي سفيان حزب الشيطان ٠

ولما بلغ أبا سفيان نبأ الفشل الذي مني به تدبيره ، أسقط في يده ، ولم يدر ما هو فاعل ، فانطلق يجوب دروب مكة من غير قصد وعلى غير هدى ، وقد كان يقلقه هذا اللقاء الذي وعد به المسلمين بعد عام من أحد ، وقد أخذ الموعد في الاقتراب ولم يبدُ على أحد من قريش أنه يستعد له أو يرحب به ، ولم يكن حاله هو بأفضل من سائر الناس في مكة ، فإنه سئم الحرب وملّها يود لو وقفت عند الذي أحرزوه في أحد ، وهو يعلم أن غالبية القرشيين يودون الذي يوده ، ولكن كبرياءهم تمنعهم من البوح بما يودّون ، لذا كان على أبي سفيان ومن معه أن يستمروا في الحرب ويكتووا بنارها التي لا ترحم ٠



وعاش أبو سفيان الأيام التي تفصله عن موعد اللقاء المرتقب مع محمد في بدر الموعد ، في قلق متصل ، يقض مضجعه خوف مكبوت ، ويكدر عيشه ترقب غير مرغوب ، وعندما شاع في مكة أن قبيلتي عضل والقارة قد أتت بأسيرين مسلمين أسرتهما غدراً في الرجيع ، ظنّ أبو سفيان أن في هذا نصراً لقريش يرفع من معنوياتها ويشدّ من أزرها ، وأراد أن يتخذ من قضية هذين الأسيرين سلوى لنفسه المضطربة ومتنفساً لآلامه المكبوته ٠٠٠

ولما قُدِّم زيد بن الدثنة للقتل ، اجتمع حوله قساة القلوب وجُفاة النفوس يتقدمهم أبو سفيان الذي وقف أمام زيد متشفياً ، ثم تقدم منه في تردد ، ونظر إلى من حوله كأنه يقول لهم : اسمعوا ما سأقوله لزيد وما سيجيبني به ، فإنكم ستسمعون عجبا . . . والتفت إلى زيد وقال له :

أنشدك بالله يازيد ، أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك ؟

قال زيد بثقة وهدوء أذهل الحاضرين ؛ والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي .

والتفت أبو سفيان إلى من حوله كأنه يقول لهم : أسمعتم ؟ ثم قال في مرارة وأسى : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحبّ أصحاب محمد محمدا .

وكأنّ ما سمعه أبو سفيان من زيد زاده بغضاً لمحمد وأصحابه ودعوته ، فلم يكتف بالحضور بنفسه لمشاهدة مقتل خبيب بن عدي - رضي الله عنه - بل صحب معه ابنه معاوية ليريه كيف يكون الانتقام من أعداء هُبل ، وليزرع في نفسه بغض هؤلاء الذين يهزؤون بالأصنام ويدعون إلى عبادة الواحد العلّام ...

ونظر خبيب أمامه فإذا رؤوس الكفر وأولادهم قد اجتمعوا حوله يتلذذون بمنظره وهو يقدم للقتل وينتظرون دماءه أن تسيل لتنقع غلة الحقد في قلوبهم ولتروي ظمأ الكراهية والبغضاء في نفوسهم ، فاتجه إلى الله ضارعاً ، ثم نظر إلى جمعهم ودعا عليهم قائلاً : اللهم احصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحدا ...

وفزع أبو سفيان من دعوة خبيب ، وخشي على ابنه معاوية أن تصيبه ، فألقاه أرضاً متبعاً سنن الجاهلية إذ يزعمون أن من دعي عليه فاستلقى لجنبه اخطأته الدعوة !

* * *

ولما رأي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما يفعله أبو سفيان بالمسلمين ، أرسل عمرو بن أميه الضمري ورجلاً من الصحابة ليقتلاه في مكة ، ولكن قريشاً عرفته ونذرت به ، فأسرع خارجاً من مكة ، وقد قدر الله لأبي سفيان مصيراً آخر ...

* * *

وحلّ الموعد الذي ضربه أبو سفيان للمسلمين في بدر ، وكان لابد له أن

يفي بوعـده ، وإلا كان محط سخـريـة الساخرين في مكة وما حولها ، لذا فقد أعلن أنه أزمع الخروج للقاء محمد ، وأعد لهذا اللقاء عدّة الكاره له ، الضيّق به ، البرم بإنجازه ، وكذلك فعل أهل مكة ، فلم يكونوا أقل من أبي سفيان ضيقاً باللقاء وكراهية له وبرماً به ...

وخـرج أبـو سفيـان بجيشـه متثـاقـلاً متباطئاً يودّ لو أن رسول الله لم يخرج لموعـده ، أو لو أن أحـداً من النـاس يثنيـه عن عزمـه ، أو لو أن حدثـاً يحدث فيتخذه ذريعة ليلوى عنان فرسه ويكر راجعاً إلى مكة ...

أما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد خرج بجيشه إلى بدر حيث المـوعـد المضـروب وقـد تبعـه الصحابه وهم في شوق للقاء جيش الكفر حتى يذيقـوه طعم السيـوف المسلمه لعله يصحو من سباته ويفيق من غفلته فيؤمن بالله ربـاً وبمحمـد رسـولا وبـالإسلام ديناً . . . فلم تكن بجيوش المسلمين رغبـة في سفـك الـدمـاء ، ولكنهم كانوا يحاربون من أجل نشر الهداية وتبليغ رسالة السماء ...

ولم يزل أبو سفيان في تفكير متصل حتى وصل عُسفان فوقع على ما أراد ، فقد خطرت له الفكرة التي تنجيه من لقاء السيوف المسلمة . . . فالتفت إلى جيشه وقاله لهم : يا معشر قريش ، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن . . . وعامكم هذا عام جدب ، وإني راجع فارجعوا !

ولم يلق أبـو سفيـان من أحد من أتباعه اعتراضاً رغم تهافت الحجة ، فقد كانوا أشد منه شوقاً إلى الرجوع وأكثر منه حرصاً على النكوص !

ولمـا بلغ المسلمـين نبأ نكـوص أبي سفيـان ومن معه انبرى شاعر الإسلام كعب بن مالك يسخر من أبي سفيان ويعيره إخلافه الوعد ونكوصه عن اللقاء :

وعـدنـا أبـا سفيـان بدراً فلم نجـد ... لميـعـــاده صدقـــاً ومـــا كان وافيـــا

فأقـسـم لو لاقـيـتـنـــا فلقـيـتـنـــا ... لأبت ذميـــماً وافتقـــدت المـــواليـــا

* * *

مع مرور الوقت وتتابع الأحداث أخذ أمر قريش يهبط ويسرف في الهبوط ، فالحرب لم تعد على قريش إلا بالفشل والخسران ، والناس في قريش أخذوا يميلون إلى الاعتقاد بصحة ما جاء به محمد ، وكثير من الشباب والعقلاء منهم انتقلوا إلى معسكر الإسلام وأصبحوا من رجاله الذائدين عنه المدافعين عن مبادئه المضحين في سبيل مُثُله ، والغالبية العظمى من رجال قريش يمنعهم كبرياؤهم ويحجزهم الخوف من سفائهم أن يعيروهم بالتخلي عن دين الآباء والاجداد من الدخول في دين الله ...

لهذا لم يعد في قريش أحد يذكر الحرب مع المسلمين أويدعوإليها ، وإن هي ذكرت عرضاً فإن ذكرها سرعان ما يطوى ويُنسى .

ولم يكن هذا المآل الذي آلت إليه قضية الصراع بين الوثنية والإسلام ليرضي اليهود ، فهم يخشون إن استمر الأمر على ماهوعليه من السكون والركود أن يغلب الحق الإسلامي باطل قريش ، فتدخل في دين الله ، فيكون ذلك وبالاً على اليهود الذين لا يريدون لدين الله أن يغمر بأنواره ظلام الشرك ، وأن يكشف بسناه باطل الأديان المحرفة ، فسارعوا إلى حشد مكرهم وحبك مؤامراتهم ، ورأوا أن يبذلوا جهودهمْ لكي يضمنوا استمرار الحرب ضد الإسلام وأهله .

اجتمع لذلك الأمر رهط من زعماء اليهود فيهم : سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن الربيع وهوذة بن قيس ، وأجمعوا أمرهم على أن يذهبوا في وفد إلى قريش والقبائل العربية الأخرى ليحضوهم على حرب المسلمين .

تكون الوفد من سبعين يهودياً على رأسهم كعب بن الأشرف وذهبوا إلى مكة ونزلوا على أبي سفيان بن حرب ، فرحب بهم وأكرمهم ، لأنه رأى في مقدمهم دعماً لقريش وتأييدا لموقفها في صراعها مع المسلمين ، وأراد أبو سفيان أن يبث الأمل في نفوس القرشيين الذين خالطهم اليأس من القضاء على الاسلام وأهله ، فطلب من يهود أن يخرجوا إلى باحة الكعبة ليراهم

النــاس ، ويجتمعـوا بهم ويسمعـوا منهم ما يحملونـه لهم من تأييد ونصرة على الإسلام والمسلمين ٠

ويبـدو أن أبـا سفيـان رأى أن يزيد قريشاً ثقة بعقيدة الأصنام ، ويتأكد في الــوقت نفســه من صدق يهود في مؤازرتهم لهم ، ففـاجأ وفـد يهود بسؤالهم والناس تسمع : يا معشر يهود ، إنكم أهل كتاب ، ومحمد صاحب كتاب ، ولا نأمن أن يكـون هذا مكـراً منكم ، فإن أردتم أن نحـالفكم ونقـاتل محمداً معكم فاسجدوا لهذين الصنمين وآمنوا بهما !

وران الصمت على الجمـوع المحتشـدة ، وسيطر جوّمن الترقب الممزوج بالانفعـال في انتظـار ردّ يهود ، ولكن كل ذلـك تلاشى في لحظات عندما رأى الناس سبعين يهودياً يخرون سُجداً لصنمي قريش !

ونـدت عن الجمـوع شهقـات استغـراب اختلطت بتعبـيرات الإعجـاب والارتيـاح ، فقـد كان بعض الحـاضـرين يستبعـد أن يفعلهـا أهـل الكتاب الأول ، وقـد غاب عن بالهم أن أجـداد هؤلاء قد سجـدوا لصنم السـامري وموسى بين أظهرهم ٠٠٠

وهكـذا تم في هذا الاجتـماع عقـد الحلف بين جاهليـة الأحبـار وجـاهلية الأوثـان ، فنشطت قريش للحـرب ، وشـرعت تعـد لها عدتها ، وراح الوفد اليهودي يتنقل بين قبائل العرب يجمعها على حرب المسلمين ٠

ورأى أبـو سفيـان أن الرياح أخذت تهب كما يشتهي ، وأن حين المسلمين قد حان ، فلا قبل لمحمد ومن معه بما تعده قريش ومن حالفها من يهود ومن سينضم إليهم من قبـائـل العرب ، فتناول القلم وكتب إلى رسول الله رسالة يهدد فيها ويتوعد :

« أمــا بعــد ، فإنــك قد قتلت أبطـالنـا ، وأيتمت الأطفـال ، ورملت النسـوان ، والآن ؛ فقـد اجتمعت القبـائـل والعشـائـر يطلبـون قتالك وقلع آثارك ، وقد أنفذنا إليك نريد منك نصف نخل المدينة ، فإن اجبتنا إلى ذلك وإلا أبشر بخراب الديار وقلع الآثار :

تجاوبت القبائل من نزارٍ لنصر اللات في البيت الحرام
وأقبلت الضراغم من قريش على خيل مسومة ضرام

فلما قرىء كتاب أبي سفيان على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر من يكتب له هذا الجواب الحازم :

« وصل كتاب أهل الشرك والنفاق ، والكفر والشقاق ، وفهمت مقالتكم ، فو الله ما لكم عندي جواب إلا أطراف الرماح وأشعار الصفاح ، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام ، وأبشروا بضرب الحسام وبفلق الهام وخراب الديار وقلع الآثار ، والسلام على من اتبع الهدى » .

* * *

واستطاعت جبهة الكفر أن تحشد عشرة آلاف مقاتل لحرب المسلمين ، وهو عدد لم يجتمع مثله لأحد في الجزيرة العربية من قبل ، واطمأنت يهود ، واطمأنت قريش ، واطمأن معهما من تبعهما من القبائل لهذا الحشد الكبير والجيش العرمرم ، وأيقنوا في أنفسهم بالنصر ، ومنوا أنفسهم الأماني ...

وكان أول الوهن في هذا الجيش أنه لم يتفق على قيادة واحدة ، فسار إلى المدينة بقيادة مجزأة الرؤوس مفرقة الهوى ؛

فقد خرجت قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب .

وخرجت قبائل غطفان بقيادة عيينة بن حصن .

وكان هؤلاء وهؤلاء يخضعون لتوجيهات المحرضين من يهود الذين احتفظوا لأنفسهم بقياداتهم .

وعندما وصل جيش الأحزاب إلى أطراف المدينة وجدها محصنة بخندق سلمان ، ففوجئوا بمكيدة لم يعرفوها من قبل ، ففت ذلك في عزائمهم لولا أن تدخل يهود ووعدوا بأن ينقض بنو قريظة على المسلمين من داخل المدينة فيعملوا على مساعدة الاحزاب في اقتحام الخندق وإبادة المسلمين !

وحالفت بنو قريظة الأحزاب بعد أن نقضت حلفها مع المسلمين .

وزلزل المسلمون زلزالاً عظيما ، فتوجهوا إلى خالقهم بالدعاء ، فدعا

رسول الله ربه قائلاً : اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ...

واستجاب الله لدعاء رسوله ، ففسد ما بين قريش وبني قريظة عندما أرسل أبو سفيان إليهم من يقول لهم : إنا لسنا بدار مقام ، لقد هلك الخف والحافر ، فأعدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ منه .

فردوا عليه قائلين : لسنا نقاتل محمدا حتى تعطونا رُهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا ، فإننا نخشى إن ضرستكم الحرب ، واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلادنا ، ولا طاقة لنا بذلك منه .

فأرسل إليهم أبو سفيان : إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحدا من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا .

قالوا : إنا والله ما نقاتل معكم حتى تعطونا رُهنا .

وفي هذا الجو من الخلاف العاصف الذي دب في صفوف الأحزاب أرسل الله جنده من الريح الزعزع تعصف بمضاربهم ، والبرد القارس ينخر في أجسادهم ، فبلغ اليأس بأبي سفيان ذروته ، فقام في قريش خطيباً وقال : يامعشر قريش ؛ إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل .

وعندما عاد أبو سفيان إلى خيمته استدعى أبا سلمة الخشني وأرسل معه كتاباً إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فلما وصل الكتاب ، استدعى رسول الله أبي بن كعب وأمره أن يقرأ كتاب أبي سفيان فإذا به : « باسمك اللهم ، فإني أحلف باللات والعزى وأساف ونائلة وهبل ، لقد سرت إليك في جمعنا وإنا نريد ألا نعود إليك أبدا حتى نستأصلكم ، فرأيت قد كرهت لقاءنا وجعلت مضايق وخنادق ، فليت شعري من علمك

هذا ؟ فإن نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم أحد ننصر فيه النساء » .

وعندما انتهى أبي من قراءة ما جاء في كتاب أبي سفيان أمره رسول الله أن يكتب جوابه التالي :

« من محمد رسول الله إلى أبي سفيان بن حرب ، أما بعد فقد اتاني كتابك ، وقديماً غرك بالله الغرور ، وأما ما ذكرت أنك سرت إلينا في جمعكم ، وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا ، فذلك أمر الله يحول بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزى ، وأما قولك « من علمك » الذي صنعته من الخندق فإن الله تعالى الهمني ذلك لما أراد من غيظك به وغيظ أصحابك ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وأساف ونائلة وهبل حتى أذكرك ذلك » .

ولما وصل كتاب رسول الله إلى أبي سفيان قام إلى جمله فركبه وانطلق قافلاً إلى مكة ، وتبعته قريش فهي لأمره تبع .

ولما رأت غطفان ما فعله أبو سفيان ومن معه فعلت كما فعلوا .

وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفي الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزا .

ولما رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ انسحاب الأحزاب قال : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده ...

وردد المسلمون هذا الهتاف النبوي فتجاوبت به الآفاق ...

ونظر رسول الله ـ عليه السلام ـ إلى فلول الأحزاب المدبرة ، ثم التفت إلى أصحابه الصابرين المحتسبين وقال لهم يبشرهم : لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ... ولكنكم تغزونهم .

وكانت غزوة الأحزاب آخر السهام في جعبة قريش .

وكانت غزوة الأحزاب إعلاناً على إفلاس قيادة أبي سفيان وفشلها .

أحداث الهدنة

وصـل رسـول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ وأصحـابـه إلى الحديبية في طريقهم إلى مكة معتمرين ، وعلمت قريش بقدومهم فأصرت على منعهم من دخول مكة ، ولم يشأ رسول الله أن يحدث حرباً مع قريش وقد جاء زائرا لبيت الله الحرام ، فأرسل عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ ليفاوض قريشاً ، فأتى عثمان أبا سفيان بن حرب وبلغه رسالة رسول الله ، فقال أبو سفيان : لقد آلينا أن لا يدخلها رغماً عنا ، أما أنت يا عثمان فإن شئت أن تطوف بالبيت فطف •

قال عثمان : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله •

ونظر أبو سفيان إلى عثمان وكله عجب من إخلاص المسلمين لمحمد ومن حبهم له ، وقال لعثمان : كما شئت •

وجـرت المفـاوضـات بين المسلمـين وأهل مكة ، وأخذت رسل مكة تأتي رسول الله ـ ﷺ ـ وتعود من عنده بما يدخل الطمأنينة على قريش ، مؤكدا لهم أنـه إنـما جاء معتمـرا لا غازيا ، وتعود الوفود أيضاً وتروي ما تراه من حب المسلمين وإيثارهم لرسول الله ، حباً لم يُرو عن قيصر وكسرى ، وإيثاراً لم يُر مثله قط في قديم الزمان وحديثه •

وانتهت المفـاوضـات إلى الصلح الذي يمتد عشر سنين ، على أن يعيش الطرفان في سلام ويترك كل منهما لشأنه ، يفعل ما يراه صلاحاً لدينه ودنياه •

وانصـرفت قريش إلى تجارتهـا ، فقـد أضرت بها الحرب وكادت تنزل بها الكوارث الاقتصادية ، بل إنها عانت من مجاعات ألجأتها إلى طلب المعونة من عدوها ٠٠ فلم يبخل عليهم رسول الله بها ، فقد كان أرأف بهم من أنفسهم وأحنى عليهم من ذواتهم ٠

وانصرف المسلمون إلى شؤون دولتهم ينظمـونهـا وإلى أمـور دعوتهـم ينشرونها ، فأرسل رسول الله ـ ﷺ ـ جيشه إلى مُؤتة ليؤمن حدود الدولة من أطماع الروم ، وبعث رسله إلى ملوك الأرض وأمرائها يدعوهم إلى الإسلام ٠



وبينـما كان أبـو سفيـان منشغـلاً في الاعـداد لحملتـه التجـارية إلى الشام جاءه ، رجل مسرعاً وهو يقول : أدركنا يا أبا سفيان ، أدركنا يا أبا سفيان ٠

قال أبـو سفيـان : ويحك أيها الرجل مم أدرككم وقد عقدت لكم صلحاً مع محمد ٠

قال الـرجـل : هذا أبـو بصـير شاعـر العرب وصناجتها متوجه إلى المدينة ليُسلم ، وقـد قال شعـراً في مدح محمـد ، والله لئن أسلم الأعشى وأخـذ في مدح الإسلام لانتشر ذكر المسلمين وشاع أمرهم ودخل الناس في دينهم أفواجا ٠

ترك أبو سفيان وكثير من علية القوم أمور القافلة وهرعوا لاستقبال الأعشى قبـل أن ينطلق إلى المـدينـة ، وقـابله الجميـع بالترحاب ، وأنزلوه منزلاً فخماً وبالغوا في إكرامه .

قال له أبو سفيان : إلى أين المقصد يا أبا بصير ؟

قال : إلى محمد ، آتيه فأسلم ، فإني قد وجدت ما يدعو إليه حقاً ٠٠

قال أحد الحاضرين : وهل قلت في محمد شعرا ؟

قال الأعشى : نعم

قال الرجل : أسمعنا ما قلت يا أبا بصير .

قال أحد الرجال : لا نحب أن نسمع مدحاً في محمد .

قال الرجل ضاحكاً : هل أصبحتم تفرقون من الشعر يقال في مدح محمد ؟ لا تلتفت إلى ما يقوله هذا وأمثاله وأسمعنا شعرك يا أبا بصير.

اعتدل الأعشى في مجلسه ،ثم انطلق ينشد :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وعادك ما عاد السليم المسهّدا
وما ذاك من عشق النساء وإنما تناسيت قبل اليوم خلة مهددا

واستمر في إنشاده والقوم يتابعونه بإعجاب ، فلما وصل إلى قوله :

فآليت لا أرثي لها من كلالة ولا من حفاً حتى تزور محمدا
نبيٌّ يرى مالا ترون ، وذكرهُ أغار لعمري في البلاد وأنجدا
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم تُراحي وتلقَيْ من فواضله يدا

سرت في القوم همهمات وهمسات . . . . منها محتج غاضب ومنها معجب عاتب ، والتفت أبو سفيان بن حرب إلى الملأ من قريش ممن ضمهم المجلس وقال لهم : هذا صناجة العرب ما قصد أحداً ومدحه إلا سار ذكره في البلاد وعلا شأنه بين العباد ، فهل ترون أن أجعل له جائزة تصرفه عن محمد ودين محمد ؟

قالوا : نعم .

التفت أبو سفيان إلى الأعشى وقال له : يا أبا بصير ، إنك إن أتيت محمداً نهاك عن خلال وحرّمها عليك .

قال : وما هي ؟

قال أبو سفيان : إنه يحرم عليك الزنا .

قال الأعشى وهو يبتسم : لقد تركني الزني وما تركته ! ثم ماذا ؟

قال أبو سفيان : إنه يحرم عليك القمار .

قال الأعشى : لعلي إن لقيته أن أصيب منه عوضاً من القمار ، ثم ماذا ؟

قال أبو سفيان : إنه يحرم عليك الربا .

قال الأعشى وهو يقلب كفيه : **لا دنت ولا ادّنت** ، ثم ماذا ؟

قال أبو سفيان وهو يلقي بآخر مافي كنانته : إنه يحرم عليك الخمر .

قال الأعشى وهو يأخذ نفساً عميقاً : أوّه ! أما هذه فوالله إن في نفسي منها لعلالات ، وإني منصرف فأتروى منها عامي هذا .

ولم يطمئن أبو سفيان لما قاله الأعشى ، وخشي إن هم تركوه أن ينقلب إلى محمد فيسلم ، فنظر إليه مبتسماً وقال له : هل لك في اتفاق نجريه بيننا ؟

قال الأعشى : وما هو ؟

قال أبو سفيان : نحن الآن في هدنة مع محمد، نُعطيك مائة من الإبل ، وترجع إلى بلدك سنتك هذه ، وتنظر ما يصير إليه أمرنا ، فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفاً ، وإن ظهر علينا أتيته .

قال الأعشى : ما أكره ذلك .

عندئذ التفت أبو سفيان إلى الناس وقال لهم : يا معشر قريش ، هذا الأعشى ! والله لئن أتى محمداً واتبعه ليضرمن عليكم نيران العرب بشعره ، فاجمعوا له مائة من الإبل ...

وسرعان ما كانت الإبل عند الأعشى ، فساقها أمامه وانصرف ...

والتفت أبو سفيان إلى قومه وقال لهم : لقد أزاح الله عنكم هماً ثقيلا ، فانصرفوا إلى تجارتكم فتدبروا أمرها .

* * *

وقاد أبو سفيان قافلة قريش إلى بلاد الشام ، وانطلق بها حتى أتى غزة ، فأناخ فيها يبيع ويشترى ...

وفي هذه الأثناء كانت رسل رسول الله قد انطلقت تبلغ دعوة الله إلى ملوك الأرض وأمرائها ، ووصل دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل عظيم الروم ، وقدم له رسالة رسول الله التي يدعوه فيها وقومه إلى الإسلام ، فلما قرأها أعظم الأمر ، وطلب من وزرائه وحجابه أن يلتمسوا له رجلاً من قريش ليسأله عن هذا الرسول الذي ظهر في جزيرة العرب ...

وبينما أبو سفيان وصحبه غارقون في تجارتهم ، يبيعون ويشترون ، إذ

هجم عليهم صاحب الشرطة واقتادهم إلى هرقل في بيت المقدس ...

فلما دخلوا عليه أعظموه وهابوه ، ولكنه آنسهم ولاطفهم حتى قرّت بلابلهم وذهب عنهم روعهم ، عندئذ توجه إليهم بالسؤال الذي أحضرهم من أجله ، قال : هل أنتم من قوم الرجل الذي ظهر بالجزيرة يزعم أنه نبي ؟

قالوا والدهشة تستولي عليهم لاهتمام هرقل بأمر محمد ودعوته : نعم نحن من قومه .

قال : فأيكم أمسُّ به رحماً ؟

قال أبو سفيان : أنا .

قال هرقل : ادنُ مني .

فلما دنا منه أجلسه بين يديه ، ثم دعا أصحابه فأجلسهم خلفه ، ثم قال لأبي سفيان : إني سائلك عن هذا الرجل فاصدقني ، ثم التفت إلى أصحاب أبي سفيان وقال لهم : إن كذب صاحبكم فردوا عليه .

قال أبو سفيان لنفسه : والله إني لأعلم أن لو كذبت ما ردوا عليّ ، ولكني أعلم أيضاً أني لو كذبت وأنا سيدٌ فيهم لتحدثوا بذلك في مكة ووصموني بالكذب ، وهو سبّة لا يرتضيها سيد لنفسه ، والله لا أكذبه ...

ثم انتبه أبو سفيان إلى صوت هرقل وهو يسأله : أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج فيكم ؟

وأخذ أبو سفيان يزهد لهرقل في شأن رسول الله ويصغر له أمره .

ولكن هرقل لم يأبه لما ذهب إليه أبو سفيان من التزهيد والتصغير وقال له : أخبرني عما أسألك عنه من أمره .

قال أبو سفيان : سمعاً وطاعة ، سلني عما بدا لك .

قال هرقل : كيف نسبه فيكم ؟

قال أبو سفيان : محضٌ ، من أوسطنا نسباً .

قال هرقل : فأخبرني ، هل كان من أهل بيته أحدٌ يقول مثل قوله فيتشبه به ؟

قال أبو سفيان : لا .

قال هرقل : فأخبرني ، هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردّوا عليه ملكه ؟

قال أبو سفيان : لا .

قال هرقل : أخبرني عن أتباعه منكم من هم ؟

قال أبو سفيان : الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء ، فأما ذوو الأسنان من الأشراف من قومه فلم يتبعه منهم أحد .

قال هرقل : فأخبرني عمن يصحبه ؛ أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ؟

قال أبو سفيان : قلما صحبه رجل ففارقه .

قال هرقل : فأخبرني عن الحرب بينكم وبينه .

قال أبو سفيان : الحرب بيننا وبينه سجال ، يدال علينا وندال عليه .

قال هرقل : فأخبرني ؛ هل يغدر ؟

قال أبو سفيان وهو يحاول أن يغمز من قناة رسول الله : لا ، ونحن منه في هدنة لا نأمن من غدره !

وأطرق هرقل ساعة ثم رفع رأسه وقال لأبي سفيان : زعمت أنه من أمحضكم نسباً ، وكذلك يأخذ الله النبي ، لا يأخذه إلا من أوسط قومه ، وسألتك : هل كان من أهل بيته أحد يقول مثل قوله يتشبه به ، فقلت لا ، وسألتك : هل كان له ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه ، فقلت لا ، وسألتك عن أتباعه ، فزعمت أنهم الأحداث والمساكين والضعفاء وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان ، وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ، فزعمت أنه قلَّ من يصحبه فيفارقه ، وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه ، وسألتك كيف الحرب بينكم ، فزعمت أنها سجال يدال عليكم وتدالون عليه ، وكذلك تكون حروب

الأنبياء ، ولهم العاقبة ، وسألتك هل يغدر ، فزعمت أنه لا يغدر ، ولئن صدقتني ليغلبني على ما تحت قدميّ ، ولوددت أني عنده فأغسل قدميه ... الحق بشأنك .

وخرج أبو سفيان من مجلس هرقل وهو يضرب كفاً بكف ويقول لأصحابه : عباد الله ، لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة (١) ، أصبح والله ملوك بني الأصفر يخافونه في سلطانهم !

عاد أبو سفيان إلى مكة وقد حمل لقريش أرباحاً وفيرة ، فوزعها عليهم ، فرضوا عن ذلك ، وأثنوا على أمانته ، وانصرفوا لشؤونهم ...

أما أبو سفيان فإن أمر التجارة وأرباحها لم تعد شغله الشاغل وحديثه المفضل في نادي قومه أو في مجالس العشائر حول الكعبة ، فقد أثر في نفسه ما سمعه من هرقل ، ولا زالت كلماته ترن في أذنه وتبعث الرهبة في نفسه : لئن صدقتني ليغلبني على ما تحت قدميّ . . . ولوددت أني عنده فأغسل قدميه !ويردّد أبو سفيان ما قاله هرقل ، ويقول في نفسه : أيصدق أحد في الدنيا أن محمدا الذي أخرجناه من بلده وألجأناه إلى غير أهله ينتصر على هرقل الروم الذي غلب فارس وهزم جيوشها الجرارة . . . لولا أني سمعت ذلك القول من فم هرقل نفسه ما صدقت أنه يقوله . . . ثم ما هذا التواضع الذي لم نعهده من قياصرة الروم . . . هل يصدق أحد أن هرقل العظيم يتمنى أن يكون تابعاً لمحمد يغسل قدميه . . . أكنت في حلم أم كنت عند قيصر حقيقة وسمعت ما سمعت يقينا ...

وأنتابت أبا سفيان حالة من القلق والضيق وود لو قام إلى هؤلاء القوم الذين كانوا معه فسألهم إن كانوا سمعوا من قيصر ما سمع ، فإنه بات يشك في ذلك ، وأصبح يخشى على نفسه من همزات الشياطين !

(١) كان مشركو مكة يقولون للنبي - ﷺ - : ابن أبي كبشة ، وفي تفسيره ثلاثة آراء :
الأول : أن أبا كبشة رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان وعبد الشعرى العبور فسمى مشركو مكة رسول الله به لخلافه إياهم إلى عبادة الله تعالى .
الثاني : أن أبا كبشة كنية وهب بن عبد مناف جد رسول الله من قبل أمه فنسب إليه لأنه نزع إليه في الشبه .
الثالث : أن أبا كبشة زوج المرأة التي أرضعت رسول الله - ﷺ - .

* انظر اللسان مادة كبش .

ومرّ به رجل ممن كان معه في رحلته وممن حضر معه مجلس هرقل ، فهم بأن يناديه ، ولكنه تراجع حتى لا يظن الرجل به الظنون . . . ولكن الرجل مال إلى حيث يجلس أبو سفيان وحيدا وحياه قائلًا : عم مساءً يا أبا سفيان ، مالي أراك شارد الذهن كأنك تفكر في أمر أهمك لا تجد لك منه مخرجا ؟

قال أبو سفيان : هو كذلك .

قال الرجل : لعل الذي أهمك ما بلغك من زواج محمد من ابنتك أم حبيبة ؟

قال أبو سفيان : أنت تعلم أن محمداً فحل لا يقذع أنفه . . . وأنه الرجل الذي يفاخر به من يناسبه .

قال الرجل : كأنك تميل إلى محمد !

قال أبو سفيان : ما كنت لأفعل ذلك وبيني وبينه دماء وثارات ...

قال الرجل : كذلك الظن بك يا أبا سفيان ...

وأخذت الأيام تمر على قريش مليئة بالأحداث التي تسوؤها ، فلم يكد يمر يوم إلا وتطير الأخبار بإسلام نفر من قريش وانضمامهم إلى جبهة الإسلام ، ولم يكد ينتهي مساء إلا وتأتيهم الأخبار بانتصارات جديدة للمسلمين ...

وغدا أبو سفيان في وضع متأرجح وأزمة تأخذ بأنفاسه ، لا يدري ماذا يعالج من هموم قريش وماذا يدع ، فما من مشكلة إلا ولها أبعادها وما من حدث إلا وتُخشى عواقبه . . . فلم يعد تفكير أبي سفيان يسعفه بالتصرف السليم والتدبير الحكيم .

وغدت قضية إقبال الشباب القرشي على الإسلام همه الذي يعكر عليه صفوه ويقض عليه مضجعه ، فإنه غدا يخشى أن يأتي اليوم الذي لا يجد في مكة سوى شيوخها وعجائزها ممن يقيم على دين الآباء والأجداد ، ويحترم اللات والعزى وهبل ومناة .

وأكثر أبو سفيان من الجلوس أمام أصنام قريش يسرح فيها النظر ويفكر في

مصيرها إذا ما انتهت الهدنة بين قريش والمسلمين ، وكان كلما وصل إلى هذا الحدّ من التفكير تضيق نفسه وتتوفز أعصابه ولا يُسكن توفزه ولا يفرج همه إلا هذه السنوات الطويلة التي تفصل بينه وبين الأجل الذي تنتهي عنده الهدنة.

ولم تدع الأحـداث أبـا سفيـان وهـذا الاطمئنـان الـذي يركن إليـه ويلوذ به ، فقد هرع إليه رجال ممن يتابعونه على رأيه ويتعصبون له لينهوا إليه أخباراً في غاية السوء ، قالوا : أدرك الناس يا أبا سفيان لا يفتنوا بما صنع خالد بن الوليد .

قال : وماذا صنع خالد ؟

قالـوا : تابـع محمـدا على دينـه وأعلن ذلك في بطاح مكة وظواهرها وبين رجالها ونسائها . . .

قال : عليَّ بخالد ، أرسلوا من يدعوه إليّ .

وجاء خالد بن الوليد إلى مجلس أبي سفيان ، وحضر من قريش جمع كبير ليروا ماذا سيفعل أبو سفيان بخالد .

قال أبو سفيان : أحق ما بلغني عنك ؟

قال خالد : إنه حق .

عند ذلك تغير وجه أبي سفيان وقال في حنق : واللات والعزى لو أعلم أن الذي تقول حق لبدأت بك قبل محمد !

قال خالد متحدياً : فوالله إنه لحق على رغم من رغم !

فاندفع أبو سفيان نحوه في غضب ، فقام عكرمة بن أبي جهل فحجز بينهما وقال لأبي سفيان : مهلاً يا أبا سفيان فوالله لقد خفت للذي خفت أن أقول مثل ما قال خالد وأكون على دينه ، أنتم تقتلون خالداً على رأي رآه ، وهذه قريش كلهـا تبـايعت عليه ، والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم !

ورجع أبو سفيان إلى مجلسه ، وأشار إلى الناس فانصرفوا عنه .



وسارت الأمور في مكة هادئة لا يعكرها سوى هذه الأنباء التي تتكرر عن إسلام هذا الفتى وإيمان ذلك الرجل ومع مرور الأيام لم تعد هذه الأنباء تثير أحداً فضلاً عن أن تحدث زلزلة ، فقد غدت أمراً طبيعياً ألفه أهل مكة واعتادت عليه أسماعهم ...

وظن أبو سفيان أن أمر مكة إلى استقرار طالما استمرت المعاهدة نافذة ، وكان يرى أن أمامه سنين يستطيع أن يتدبر أمره في أثنائها فيزيد من تلاحم قريش ويجمع حولها الأحلاف والأنصار ، ولم يكن يعلم أن أموراً تدبر في الخفاء ستجعل الاستقرار حلماً وستحيل الهدوء الذي يشعر به إلى اضطراب لا يعلم مداه ولا منتهاه ...

لقد تآمر رجال من سفهاء مكة لإثارة الأحقاد بين بني بكر حلفاء قريش وخزاعة حلفاء المسلمين ، وحرضوا بني بكر ليأخذوا بثأرهم من خزاعة ، ودبروا الأمر بليل ونفذوه بصمت ، ولم يعلم أبو سفيان بشيء من ذلك حتى سمع الأصوات والصراخ والاستغاثة قادمة من حول البيت ومن الطرقات ، فنهض مسرعاً يستطلع الأخبار ، فلم يرعه إلا جماعة من بني بكر تلاحق نفراً من خزاعة لجؤوا إلى الكعبة ولاذوا ببيوت السادة من قريش ، ورأى أبو سفيان رجالاً من خزاعة يسقطون قتلى وجرحى حول الكعبة ، فهاله الأمر ودعا الناس إلى الكف عن القتال وإغماد السيوف ...

والتف حول أبي سفيان شيوخ مكة يسألون ويستفسرون ، فاستنكر أبو سفيان فعلة بني بكر ، وقال : أخشى أن يكون أحد منا أعانهم ، فإنا لا نحب أن نقطع الهدنة مع محمد فإن في قطعها مضرة بنا .

ومال رجل من الحاضرين على أبي سفيان وقال له : قد والله أعانهم نفر منا ، وإني لأخشى أن يبلغ محمدا ذلك فينهي ما عقدناه معه ، وإنه لمحق إن فعل .

قال أبو سفيان في ضيق : إليك عني أيها الرجل ، ومن يبلغ محمدا بالذي حدث ؟

ودعـا أبـو سفيـان النـاس إلى الانصـراف ، واتجه هو إلى بيته وهو يسائل نفسـه : أيـذهب الخزاعيون إلى محمد فيستنصرونه . . . أعرفوا أن رجالاً منا ساعدوا بني بكر على حربهم ، إن كانوا قد عرفوا وأبلغوا محمدا فإنها للطامة الكبرى .

وحـاول أبـو سفيان أن يصرف هذه الأفكار عن نفسه ، ولكنها ألحت عليه وسيطرت على تفكيره وأنزلت الهم والغم على قلبه ...

وقبل أن يصل إلى داره قرر العودة إلى دار الندوة ليناقش الأمر مع الملأ من قريش لعلهم يجدون لهذا الأمر مخرجا ...

انهيار الهدنة

نظر أبو سفيان إلى الملأ من قريش وقد استجابوا لندائه واجتمعوا في دار الندوة ، وقال لهم : لقد أوقعنا سفهاؤنا في شرّ وما أظننا نستطيع التخلص منه إن علم به محمد ، وقد جمعتكم لأسمع منكم وأرى رأيكم ، فإنما أنا رجل منكم أرى ما ترون وأفعل ما تفعلون (١)

قال قائل منهم : أرى أن نحتاط للأمر ونعد له عدته ، فإن رغب محمد في قطع الهدنة كنا في عدتنا وسلاحنا لا يفجأنا بالحرب .

قال أبو سفيان : أخشى أن يكون محمد قد بلغ من القوة مبلغاً لا تستطيع قريش أن تقوم له ، وإنكم لترون أنه لم يناكر (٢) أحداً قط إلا كانت معه الأهوال .

قال آخر : نرسل من يعتذر إليه عن الذي بدر من حلفائنا وسفهائنا فلعله يقبل العذر ، وقد عهدناه رؤوفاً بالناس رحيما .

قال ثالث : إن لي رأياً لو أخذتم به .

قالوا : وماذا ترى ؟

قال : أرى أن يذهب أبو سفيان إلى المدينة فيطلب من محمد أن يشدّ العقد الذي بيننا ويزيد في مدته وأن يستشفع لذلك بابنته أم حبيبة فإنها زوج محمد وما أظن محمدا يرد لها طلبا .

---

(١) جاء في كتاب المغازي ص ٢٠٠ أن أبا سفيان قال عن قريش : « أنا رجل منها ما فَعَلَتْ فَعَلْتُ »
(٢) يناكر : يقاتل ، راجع النهاية حـ ٥ ص ١١٤

واستحسن القوم ذلك ، وأجمعوا عليه ، واختاروا نفراً منهم يرافقون أبا سفيان في رحلته ، وطلبوا منهم أن يسرعوا للقاء محمد قبل أن تلقاه خزاعة فتفوت عليهم ما عزموا عليه .

* *

بينما كان السادة من قريش يعقدون اجتماعهم في دار الندوة ويديرون الحديث عما حدث بين بني بكر وخزاعة ، كان بنو خزاعة قد أرسلوا وفداً منهم إلى المدينة يستنصرون رسول الله على من خانوا العهد وأخلوا بالعقد ، وكان بين الوفد بديل بن ورقاء وعمرو بن سالم ،

وصل الوفد مدينة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورسول الله في مسجده بين أصحابه ، فلما دخلوا عليه حيوا بتحية الإسلام ، ثم انطلق عمرو بن سالم منشدا :

ياربِّ إني ناشد محمدا ... حلف أبيه وأبينا الأتلدا

قد كنتم وُلدا وكنا والدا ... ثُمت أسلمنا فلم ننزع يدا

فانصر رسول الله نصرا أبدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا

في فيلق كالبحر يجري مزبدا ... إنّ قريشاً أخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وجعلوا لي في كداء رصدا

وزعموا أن لست أدعو أحدا ... وهم أذل وأقل عددا

هم بيتونا بالوتير هجدا ... وقتلونا ركعاً وسُجدا

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : نصرت يا عمرو بن سالم .

ثم رفع رسول الله رأسه إلى السماء فإذا عنان(١) مارّ ، فقال : إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب .

ثم التفت رسول الله إلى أصحابه وقال لهم : كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم يشدُّ في العقد ويزيد في المدة .

* *

(١) العنان : السحاب

انطلق أبـو سفيـان ومن صحبه من قريش إلى المدينة ، كانوا في عجلة من أمـرهـم ، يخشـون أن تفوت عليهم خزاعة ما نعموا به من أمن في ظل الصلح الذي عقدوه مع رسول الله في الحديبية .

ولم يكـد ركب أبي سفيـان يصـل منتصف الطريق إلى المدينة حتى التقى بديل بن ورقاء ، فأوجس أبو سفيان في نفسه خيفة وأقبل على بديل يسائله : من أين أقبلت يا بديل ؟

قال بديل : سرت في خزاعة في هذا الساحلٍ في بطن هذا الوادي .

وداخل الشك أبا سفيان ، فإنه يظن أن بديلاً قد زار محمدا ، فانتظر حتى رحـل بديـل ، فعمـد إلى مبرك ناقته فأخذ من بعرها ففتّه فرأى فيه النوى ، عنـدئـذ قال لنفسه : علائف يثرب ورب الكعبة ... ثم التفت إلى من معه وقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمدا .

لقـد وقـع ما كان يحذر منـه أبـو سفيان ومن معه ومن خلفهم من قريش ، فهـل يعـود صفـر اليـدين مما ارتحـل لأجله أم يواصل سيره لعله يصيب هدفه ويقنـع محمـدا بشـدّ العقـد وزيـادة المـدة . . . إن له في المدينة ابنة هي زوج رسول الله ، فلا بد أن تكرمه ولا بد أن يستجيب لها رسول الله عندما تكلمه فيما جاء له ، واطمأن إلى هذه الخواطر وانطلق وصحبه مسرعين إلى المدينة ...

عمـد أبـو سفيـان إلى غرفـة ابنتـه أم حبيبة في مسجد رسول الله فاستأذن فأذنت له ، فتوجه إلى فراش في ركن الغرفة وهـمّ أن يجلس عليه ، فأسرعت أم حبيبة ـ رضوان الله عليها ـ إلى الفراش فطوته عنه ، فوقف تلفه الحيرة لا يدري بم يفسـر فعلة ابنتـه ، فقـال لها : أي بنيـة ، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟

قالت : بل هو فراش رســول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ وأنت رجـل مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس على فراشه !

ما الـذي يسمعـه أبـو سفيـان ؟ أهذه ابنته التي كانت أطوع له من بنانه ؟ أهي أم حبيبـة التي ما خالفتـه من قبـل في أمر قط ، أيمكن أن يكون حبها لمحمـد ودين محمـد هو الـذي غيرها ••• أم أن ابنته قد أصابها شرّ فتصرفت معه بهذا الذي يرى أنه لا يليق بابنة أبي سفيان أن تفعله •••

إن ما يراه منهـا يؤكـد له شيئـا لا يريـد أن يقتنع به ، لذا التفت إلى ابنته وقال في لهجة ممزوجة بالعتاب واللوم : يابنية والله لقد أصابك بعدي شرّ !

وفكر أبو سفيان فيمن يذهب إليه من أصحاب رسول الله ليستشفع به ، أيذهب إلى أبي بكر أم يذهب إلى عمر أم يختار عليا فإنه أمس به رحماً . . . أم يختصر الطريق ويذهب إلى رسول الله في مسجده فيكلمه لما جاء به دون شفيع •••؟

راقت له الفكرة الأخيرة ، فلم لا يكلم رسول الله بحاجته ويعرض عليه مأربه ، فلعله يقبل منه فيريح نفسه وغيره .

ودخـل على رسـول الله ، وأخـذ يكلمـه فيما جاء له ، معتذرا عما بدا من حلفـائـه ، واعـدا أن يزجـرهـم فلا يعـودون لمثلها . . . واستمر أبو سفيان في حديثـه دون أن يسمـع من رسـول الله جوابـا ، والتفت حولـه فرأى صحابة رسـول الله خشعـاً لا يتكلمـون بين يديـه إلا بإذنـه ، فرأى مهـابة لم يرها في مجالس كسـرى وقيصـر ، فخـرج من عند رسول الله حائرا لا يدري ما يفعل خائفاً ترتجف أوصاله على مصير قريش .

ودخـل على أصحـابـه الـذين جاءوا معـه ، فقـاموا إليه ، وأحاطوا به ، وانهالوا عليه بالأسئلة ،

هل وفقت يا أبا سفيان ؟

هل قابلت محمدا ؟

ماذا قال لك ؟

كيف وجدت استقباله لك ؟

وأشار أبو سفيان على صحبه أن اسكتوا ، فسكتوا .

قال أبو سفيان : لقد كلمت محمدا فيما جئنا له ، فوالله ماردّ علي ولا كلمني .

قال واحد من القوم : وهل كلمك أحد من صحابته ؟

قال أبو سفيان : والله ما كلمني أي منهم هيبة له وحبا ، والله لم أر كاليوم طاعة قوم ، ولا فارس الأكارم ولا الروم ذات القرون ..

قالوا : وماذا أنت فاعل بعد يا أبا سفيان ؟

قال : سأذهب إلى جلّة أصحابه واحدا واحدا لعلهم يكلمونه فيسمع منهم ، وسأبدأ بأبي بكر فإني ما علمته إلا رؤ وفاً بالناس محباً لحقن الدماء ميالاً للسلم كارهاً للحرب ...

وذهب أبو سفيان إلى أبي بكر فكلمه في الأمر وطلب منه أن يكلم بذلك رسول الله ، فقال أبو بكر : ما أنا بفاعل ...

وتوجه أبو سفيان إلى عمر بن الخطاب فكلمه ... فقال عمر : أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذّر لجاهدتكم به .

وخرج أبو سفيان من عند عمر بن الخطاب كاسف البال مهموما ، واتجه إلى بيت على بن أبي طالب ، واستأذن فأذن له ، ولما دخل وجده جالساً مع زوجه فاطمة بنت رسول الله ومعهما الحسن بن علي غلام يدب بين يدي أمه ، قال أبو سفيان : يا علي إنك أمس القوم رحماً ، وإني قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً ، فاشفع لي عند رسول الله ...

قال علي ـ رضي الله عنه ـ ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه .

وأسقط في يد الرجل ، فالتفت إلى فاطمة فقال : يابنة محمد ، هل لك أن تأمري بُنَيَّك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟

قالت فاطمة ـ رضوان الله عليها ـ : والله ما بلغ بني أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ...

وأظلمت الدنيا في عيني أبي سفيان ، فقد أوصدت دونه السبل ، فلم يعد يعلم ماذا يفعل ، فالتفت إلى علي ـ عليه السلام ـ وقال له مستجيرا يا أبا حسن ، إني أرى الأمور قد اشتدت علي ، فانصحني .

قال علي : والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئا ، ولكنك سيد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك .

قال أبو سفيان بنبرة حزينة : أو ترى ذلك مغنياً عني شيئا ؟

قال علي : لا والله ما أظنه ، ولكني لا أجد لك غير ذلك .

فقام أبو سفيان من مجلس علي ودخل المسجد وصاح بأعلى صوته : أيها الناس ، أني قد أجرت بين الناس ، وانطلق إلى بعيره فركبه وشدّ الرحال عائدا إلى مكة .

واستقبله أهل مكة الذين انتظروه مليا وهم يأملون أنه أنجز مهمته وقضى حاجته ، وأحاطوا به يستنطقونه ...

قالوا : ما وراءَك يا أبا سفيان ؟

قال ، ورنة الانكسار والفشل بادية في نبراته : جئت محمداً فكلمته فوالله ماردّ عليّ شيئا ، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيرا ، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى عدو ، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم وقد أشار عليّ بشيء صنعته ، فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئاً أم لا .

قالوا : وبم أمرك ؟

قال : أمرني أن أجير بين الناس ، ففعلت .

قالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟

قال : لا .

قالوا : ويلك ، والله إن زاد الرجل على أن لعب بك ، فما يغني عنك ما قلت ؟

قال أبو سفيان وقد بدت علامات الضيق تبدو عليه : لا والله ، ما وجدت غير ذلك .

وانفض النــاس من حول أبي سفيــان ، فانســل إلى بيتـه وألقى بنفسـه المكدودة المهمومة على فراشه ، وزوجه هند تحدق نحوه بعيون غاضبة !



أحـدثت النتـائج التي عاد بها أبو سفيان من المدينة اضطراباً في مكة ، فقد راح فريق من النـاس يشيعـون بأن محمـدا والمسلمـين يستعدون لغزو مكة ، وراح فريق آخر يشكك في ذلك ويصف أبا سفيان بأنه مفاوض فاشل ويدعو لإرسـال وفـد آخـر لمفـاوضة الرسول ، وزعم فريق ثالث جله من الشباب أن محمـداً لا يستطيـع أن يغـزو مكة ولا يقدر على ذلك ، وأنه إذا تجرأ المسلمون وزحفـوا نحـو مكـة فإنهم سيـلاقـون رمـاحاً مشرعة وسيوفاً مشهرة ورجالاً لا يهابـون الـردى ، وسوف يرتدون عن مكة بعد أن يأخذوا درساً بليغا ٠٠ وكان هناك فريق رابع من المسلمين المستضعفين والمسلمين الذين آمنوا سراً وبقوا في مكة يملؤهم الأمل في فتح قريب ، ويتابعون محاورات كفار مكة ومناقشاتهم بسرور بالغ إذ رأوا فيها دلائل الانكسار والانهزام .

أما أبو سفيان ومعه نفر من سادة قريش فقد أيقنوا أن محمدا ينوى أن يفعل شيئـاً ، ويبـدو أنهم توقعـوا أن غزو مكـة ربـما كان هو الشيء الـذى انتـواه الـرسـول ، لذا فقـد أخـذوا يخرجـون في كل يوم صبـاحـاً ومساءً يتحسسون الأخبار ، بل وألفوا فرقاً من شباب قريش لمراقبة مداخل مكة والمناطق المحيطة بها .

واستمر الأمر في مكة على هذا الحال من التوجس والترقب ، أما المشركون فإنهم وقعوا في هوّة الاستسلام النفسي ، وانتظروا ما تجيء به الأحداث . . . وأمـا المسلمـون فاستعـدوا للأمُـر وترقبوه بفرحة غامرة وشوق شديد ، وعندما تأكـد لرأس المسلمـين في مكـة ، العبـاس بن عبد المطلب عم رسول الله أن المسلمــين اقــتر بــوا من مكــة خرج إلى رســول الله ـ صلى الله عليــه وسلم ـ لينال شرف الهجرة وفخر المشاركة في الفتح الأعظم ٠٠٠

وسار العباس مع الجيش الفاتح إلى أن أصبح على مشارف مكة في مكان يقال له مرّ الظهران ، ونظر العباس إلى الجيش الاسلامي الزاحف فرأى جيشاً لم تعهد مثله جزيرة العرب عدداً وعدده وتنظيماً وإيماناً وثقة بالنصر ، فقال في نفسه : واصباح قريش ، والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر .

وأجال الأمر في نفسه ثم نهض إلى بغلة رسول الله وخرج عليها ينظر لعله يجد أحداً فيرسله إلى أهل مكة يخبرهم بمكان رسول الله ليخرجوا إليه فيستأمنوه .

وعندما وصل إلى مكان يقال له الأراك حيث يحتطب أهل مكة سمع اثنين يتناقشان ويتحاوران عرف فيهما صوت أبي سفيان بن حرب وحكيم بن حزام يقول أبو سفيان متعجباً : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرا .

فيرد حكيم على هذا التعجب قائلاً : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب

ويرد عليه أبو سفيان صارفاً عن ذهنه هذا الرأي : خزاعة أذلُّ وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها . (١)

وقطع صوت العباس حوارهما وهو ينادي : يا أبا حنظلة .

وعرف أبو سفيان صوت العباس ، فردّ عليه فرحاً به وأملاً أن يكون عنده الخبر اليقين : أبو الفضل ؟

قال : نعم

قال أبو سفيان : مالك فدىً لك أبي وأمي !

قال العباس : ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس .

---

(١) في راوية ابن هشام في السيرة أن هذا الحوار داربين أبي سفيان وبديل بن ورقاء الخزاعي وأنهما كانا وحدهما ، وفي رواية ابن كثير في السيرة أن الحوار داربين أبي سفيان وبديل وأن حكيم بن حزام كان معهما ، ورغم ذلك رجحت أن يكون الحوار قد داربين أبي سفيان وحكيم بن حزام ، وذلك لأن بديلاً كان خزاعيا ولا يتصور أن يقول ما نسب إليه في هذا الحوار ولا أن يرد عليه أبو سفيان بما جاء في نص الحوار .

قال أبو سفيان : واصباح قريش والله ! فما الحيلة فداك أبي وأمي ؟

قال العباس : والله يا أبا سفيان لئن ظفر بك رسول الله ليضربن عنقك ، ولكن اركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك .

وأسرع أبو سفيان فركب خلف العباس ، وعاد من كان معه إلى مكة لينشروا فيها الخبر . . . لقد جاءكم رسول الله بما لا قبل لكم به ...

وانطلق العباس بأبي سفيان إلى خيمة رسول الله ...

وكان كلما مرّ بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟، فاذا رأوا بغلة رسولة الله وعليها عمه قالوا : عم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة رسول الله ، وتركوه يمرّ دون أن يعترضوه .

واستمر الحال على ذلك إلى أن مرّ بنار عمر بن الخطاب ، فقال عمر : من هذا ؟ فردّ العباس : العباس ، فنهض عمر إلى العباس يريد استقباله والترحيب به ، فلما رأى أبا سفيان على عجز البغلة قال : أبو سفيان عدو الله ! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد .

واندفع عمر إلى أبي سفيان فوجأ في رقبته وهم بقتله ، ولكن العباس منعه من ذلك واندفع على بغلة رسول الله يسابق عمر إلى حيث الرسول صلوات الله عليه .

واندفع العباس داخلاً ومعه عمر في اللحظة نفسها ، وسبق عمر إلى الكلام فقال : يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني فلأضرب عنقه .

وأسرع العباس يرد على عمر ويقول : يارسول الله إني قد أجرته .

واندفع العباس إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخذ برأسه وقال : والله لا يناجيه الليلة دوني رجل .

ولكن عمر استمر في المطالبة برأس أبي سفيان .

واستمر العباس في الدفاع عن موقفه وألح في ذلك ...

وتابع أبو سفيان حوارهما في قلق بالغ ، ولكنه لم يرفع عينيه إلى رسول الله هيبة وخجلا ، وتقاذفته الظنون بشأن مصيره ، فهو تارة يطمئن إليه لأن المدافع عنه عم رسول الله عليه السلام وقد أعلن أمامه أنه قد أجاره ، وهو تارة أخرى يزايله الاطمئنان ويركبه الخوف ، فالذي يطالب برأسه وزير رسول الله ومن أقرب الناس إليه ٠٠٠

وانتظر أبو سفيان أن يسمع من رسول الله جواباً يخلصه من هذا الخوف الذي يلفه ، فقد اشتد ما بين العباس وعمر من جدال بشأنه وهو يخشى عاقبته ، وانتبه أبو سفيان من هواجسه على صوت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقول للعباس : اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به ٠

وانطلق أبو سفيان مع العباس وهو يقول لنفسه : لعل هذا من رسول الله موافقة على الأمان الذي منحه العباس لي ، ثم ما يلبث أن يرتد على رأيه هذا ويقول في نفسه : ولكني لم أسمع محمدا يقول للعباس : أجرنا من أجرت يا عم ، ولعله يريد أن يقتلني غداة غد أمام صحبه أجمعين ٠

ولم تدع الوساوس أبا سفيان يهنأ بلحظة نوم ، وبقي ساهراً يتململ إلى أن دعاه العباس لموعد رسول الله ، فقام وقد أنهكه السهر وأضناه التفكير ٠

وعندما خرج أبو سفيان من خيمة العباس رأى الناس منتشرين بين خيامهم وكل منهم يستعد للصلاة ، فظن أبو سفيان أنهم يستعدون لمشاهدة نهايته ، فقال للعباس في رعب : ما بالهم ، إني أرى في وجوههم الجد والاهتمام ٠٠٠

قال العباس : إنهم سمعوا النداء فهم ينتشرون للصلاة .

واطمأن أبو سفيان للذي سمعه .

ولما حضرت الصلاة راع أبا سفيان ما يراه من نظام وطاعة . . . فلما انتهت الصلاة قال للعباس : يا أبا الفضل ، ما يأمرهم ابن اخيك بشيء إلا فعلوه !

قال العباس : نعم ، والله لو أمرهم بترك الطعام والشراب لأطاعوه .

قال أبو سفيان وقد أخذه ما رأى وما سمع : يا أبا الفضل ما رأيت كالليلة ولا ملك كسرى وقيصر !

قال العباس : وما سترى أعظم مما رأيت ، هيا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ودخلوا على رسـول الله ، فداخلت أبـا سفيان رهبة لم يعهدها بنفسه من قبل ، فهذا محمد محاط بأصحابه وهو فرد لا ناصر له ولا معين ، ينتظر كلمات من محمد تقرر مصيره ومصير قريش كلها ...

ولمـا استقـر المجلس بأبي سفيان التفت إليه رسول الله وقال له : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

قال أبـو سفيـان وقد أذهب عنه خوفه ما رآه من لين ورحمة في سؤال رسول الله : بأبي أنت وأمي ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد !

قال عليه السلام : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟

قال أبو سفيان وقد أغراه حلم رسول الله : بأبي أنت وأمي ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئا !

ونظـر الجـالسـون إلى أبي سفيـان شزرا ، وتحفـزوا ليلبوا أمر الرسول فقد توقعوا أن يأمر بضرب عنقه ، وانتفض العباس وانتهر أبا سفيان قائلا : ويحك يا أبـا سفيـان ! أسلم واشهـد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك .

وراع أبا سفيان ما رآه من جد في لهجة العباس وما رآه من غضب في وجوه الحاضرين ، فبادر يردد : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله .

الرسول يتألف أبا سفيان

ارتاح العباس لإسلام صديقه أبي سفيان ، وأحب أن يرضيه بإشباع رغبته وحبه للسيادة والزعامة ، فالتفت إلى رسول الله وقال له : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئا .

وعرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن أبا سفيان بحاجة إلى ما يتألفه على الاسلام ، إذ أن إسلامه لا يزال غضاً طرياً ، فقال عليه السلام : نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

وسرّ أبا سفيان هذا التقدير من رسول الله ، ولكنه يعرف أن داره تضيق عن استيعاب أفراد معدودين فكيف بها إذا تدفق عليها أهل مكة ، فالتفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! وما تسع داري ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ومن دخل الكعبة فهو آمن .

قال أبو سفيان : وما تسع الكعبة يا رسول الله ؟

قال عليه السلام : ومن دخل المسجد فهو آمن .

أطرق أبو سفيان يفكر فيما إذا كانت هذه الأماكن تستوعب أهل مكة جميعا ، فإنه يود لو يأخذ الأمان لكل من فيها ، وطمع في كرم رسول الله وحلمه فقال له : وما يسع المسجد يا رسول الله ؟

فقال عليه السلام : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

عند ذلك اطمأن أبو سفيان وقال : أما هذه فواسعة .

وأشـار العبـاس إلى أبي سفيـان بالخـروج فخرج ، والتفت العباس إلى رسـول الله كأنـه يسـائله عما يفعله بأبي سفيـان ، ففهم الـرسول ما في نفس العبـاس فقـال له : يا عبـاس احبس أبـا سفيـان بمضيق الـوادي عند خطم الجبل حتى تمرّ به جنود الله فيراها .

وصحب العبـاس أبـا سفيان حتى إذا كانوا بخطم الجبل أوقفه ، فقال أبو سفيان : ما لنا نقف ههنا ؟

قال العباس : نريد أن ننظر إلى الناس .

ولم يلبثوا إلا قليلا حتى بدأت طلائع الجيش الاسلامي وكتائبه تمر من أمامهم .

وراع أبـا سفيـان ما يراه من عَدد وعُـدَّة ونظـام ، فأخذ يسأل العباس عن هذه الكتائب التي تمر أمامه :

ـ يا عباس من هؤلاء ؟

ـ هذه سُليم .

ـ مالي ولسليم . . ومن هؤلاء يا عباس ؟

ـ هذه مزينة .

ـ مالي ولمزينة . . ومن هؤلاء يا أبا الفضل ؟

ـ هذه غفار .

ـ مالي ولغفار . . ومن هؤلاء ؟

ـ هذه جهينة .

ـ مالي ولجهينة . . ومن هؤلاء ؟

ـ هذه سعد بن هذيم .

ـ مالي ولسعد بن هذيم !

وتوالت الكتائب ، وكلما مرت كتيبة ازداد أبو سفيان رهبة . . حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها يتقدمها رجل يحمل الراية ، فقال أبو سفيان : من هذه يا أبا الفضل ؟

قال العباس : هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة يحمل الراية .

وعندما حاذى سعد بن عبادة أبا سفيان قال له : يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستحل الكعبة .

وأسقط في يد أبي سفيان ، لقد خيل له أن هلاك قريش قريب ، ألم يسمع بأذنيه تهديد سعد . . . لمن يلجأ وإلى من يشكو ، ليس أمامه سوى العباس ، فقال له : يا عباس حبذا يوم الذمار (١)

ولم يكد أبو سفيان يتم كلامه حتى مر أمامه رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء معه أصحابه لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد ، فقال للعباس : سبحان الله يا عباس ! من هؤلاء ؟

قال العباس : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه .

وتقدم أبو سفيان من رسول الله وقال له : إني لأرى وجوهاً كثيرة لا أعرفها ، لقد كثرت هذه الوجوه عليّ .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ انت فعلت هذا وقومُك ، إن هؤلاء صدقوني إذ كذبتموني ونصروني إذ أخرجتموني .

قال أبو سفيان : يا رسول الله ، إن سعد بن عبادة يزعم أن هذا يوم الملحمة ويوم تستحل الكعبة .

فقال رسول الله : كذب سعد ، بل هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تكسى فيه الكعبة .

واطمأن أبو سفيان على مصير قومه ، ووقف إلى جانب العباس وهو ينظر متعجباً مما صارت إليه قوة المسلمين ، فقال محدثاً نفسه : ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة ، ثم قال للعباس : والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما !

قال له العباس يصحح له مفهومه القاصر : يا أبا سفيان إنها النبوة .

ولم يشأ تفكير أبي سفيان أن يستوعب ذلك ، إذ لم تكن نفسه قد اطمأنت

---

(١) الذمار : ما ينبغي حياطته والذود عنه كالأهل والعرض ، فكأنه يقول : حبذا الموت في سبيل الدفاع عن قريش

إليـه بعـد ، ولكنـه في موقف لا يستطيـع معه أن يفعل شيئا ، فقال كالمغلوب على أمره : فنعم إذن . . . إنها النبوة .

والتفت العباس فرأى الكتائب قد تم مرورها ، وأيقن أن استعراضها أمام أبي سفيان قد آتى أكله وفعل فعله ، فقال له : النجاء إلى قومك يا أبا سفيان .

وانطلق أبو سفيان لا يلوي على شيء حتى دخل مكة ، فوجد الناس في انتظـاره وقـد سرت بينهم الأقـاويـل وشـاعت فيهم الأحـاديث ، فهم في اضطراب وبلبال ، فهرعوا إليه قائلين : ما وراءك يا أبا سفيان ؟

صرخ بأعلى صوتـه حتى يسمعـه كل من حضـر : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به .

ودب الرعب في نفوس الناس ، ولم يدر أحدهم ماذا يفعل ، أيفر من مكة ناجيـا بنفسـه أم يحمل سلاحه ويدافع عن أهله ، وقبل أن يتفرق الناس قال أحدهم : وما العمل يا أبا سفيان ؟

قال : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

فقـامت إليـه زوجـه هند بنت عتبة ، وكانت من الحاضرين ، فقالت وقد تقدمت منه وأخذت بشاربه : اقتلوا الحميت الدسم الأحمس (١) ، قُبح من طليعة قوم !

قال أبـو سفيـان وهـو يدفعهـا بعيـدا : ويلكم ، لا تغـرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم مالا قبل لكم به ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن !

قالوا : قاتلك الله ! وما تغني عنا دارك ؟

قال : ومن دخـل الكعبـة فهـو آمن ، ومن دخـل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

وما إن سمع الناس قول أبي سفيان حتى تفرقوا كل إلى مأمنه .



(١) الحميت : الزِّق أو وعاء السمن ، الدسم : السمين ، والأحمس : الكثير اللحم . وكان أبو سفيان كثير الشحم واللحم بدينا

وتـدفق المسلمـون على مكة ، ودخلوها وقد خلت شوارعها من الناس ، فأمـرهم رسـول الله بإعلان التكبير والتهليل ، وامتلأت أرجاء مكة بأصوات الصحــابــة وهم يهتفـون : الله أكـبر . . . الله أكـبر . . . لا إلـه إلا الله واستمروا على ذلك طوال الليل إلى أن أصبحوا .

وكان أبو سفيان وزوجه هند يسمعان ذلك وهما في بيتهما ، فقال أبو سفيان لهند : أتريْ هذا من الله ؟

قالت هند : نعم هذا من الله .

وصمت أبو سفيان ، ولم يعقب على جوابها بشيء .

واستمـر أبـو سفيـان ساهـرا حتى انفلق الصبح ، فخرج من بيته ليرى ما الـذي آلت إليـه أحـوال النـاس ، فذهب إلى رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ، فقـال له رسـول الله : يا أبـا سفيـان ، قلت لهنـد : أتـرى هذا من الله ؟ ، فقالت نعم هذا من الله .

قال أبو سفيان وقد أذهلته المفاجأة : أشهد أنك عبدالله ورسوله ، والذي يُحلف به ما سمع قولي هذا أحد من الناس غير هند .

وخرج رسول الله يحف به صحابته من المهاجرين والأنصار إلى الكعبة ، فطهرها من الأصنام ثم خاطب قريشاً فقال لهم : يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم ؟

قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم .

قال عليه السلام : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

قال أبو سفيان في نفسه وهو يسمع كلام رسول الله : لقد أصبحت يا أبا سفيان من الطلقاء !

واستفاق من هاجسه على صوت بلال بن رباح مؤذن رسول الله وهو يرفع الأذان من أعلى الكعبة ، فهاله ذلك وما سرّه ، فالتفت فرأى عتاب بن أسيد والحـارث بن هشـام إلى جانبـه ، فنظـر إليهـما كأنـه يريد أن يسمع رأيهما فيما

يسمعان من بلال ، فقال عتاب : لقد أكرم الله أُسيدا أن لا يكون سمع هذا فسمع منه ما يغيظه !

وقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه محق لا تبعته !

وصمت أبو سفيان فلم يقل شيئا ، فقالا له : وما تقول أنت يا أبا سفيان ؟

قال : لا أقول شيئاً ، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصا !

ولما انتهى بلال من أذانه ، تقدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم من النفر الثلاثة وقال لهم : قد علمت الذي قلتم ، أما أنت يا عتاب فقلت : لقد أكرم الله أسيدا أن لا يكون سمع هذا فسمع منه ما يغيظه ، وأما أنت يا حارث فقلت : أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته ، وأما أنت يا أبا سفيان فقلت : لا أقول شيئا لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصا !

وفغر ثلاثتهم أفواههم دهشة لما سمعوا .

وقال الحارث وعتاب بصوت واحد : نشهد أنك رسول الله ، ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك .

وانصرف أبو سفيان من هذا المجلس وهو يفكر فيما آل إليه أمر قريش وأمره ، ورأى أن قريشاً قد تبعت محمدا وتركته يجتر أيامه الماضية وزعامته الذاهبة .

وبينا هو يفكر في ذلك إذ رأى رسول الله والناس حوله ، لا يحرسه أحد ، فقال في نفسه : لو جمعت لمحمد جمعاً وعاودته القتال .

ولم يكد ينتهي من أفكاره تلك حتى شعر بمن يضربه بين كتفيه ويقول له : إذاً يخزيك الله !

فالتفت فإذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائم على رأسه ، فقال : أتوب إلى الله ، واستغفر الله مما تفوهت به !

واتجه رسول الله إلى حيث اجتمعت نساء مكة استعداداً لمبايعته وسماع هديه صلى الله عليه وسلم ، وتبعه أبو سفيان ، فما كان له أن يترك واجبه في

مثل هذه الأمور ، فهو سيد قريش ولابد للسيد أن يكون حاضرا في مثل هذا الاجتماع الكبير !

ووعظ رسول الله صلى الله عليه النساء ، وكان مما قاله لهن : بايعنني على ألا تشركن بالله شيئا

وهنا ارتفع صوت امرأة تقول : والله إنك لتأخذ علينا مالا تأخذه من الرجال .

وخشي أبو سفيان أن يعرف رسول الله صوت هند فيأخذها بجريرتها يوم أحد وتمنى لو تصمت . . . وتابع رسول الله هديه : ولا تسرقن

فقالت هند : والله إني كنت أصبت من مال أبي سفيان الهنة بعد الهنة ، وما كنت أدري أكان ذلك علينا حلالاً أم لا ؟

واضطرب أبو سفيان إذ كشفت هند عن نفسها ، وخشي أن تقع الواقعة فيأمر رسول الله بقتلها ، وأحب أن يتدخل في الحديث لعله يخفف من حدة الموقف ، فقال : أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وإنك لهند بنت عتبة ؟

قالت : نعم فاعف عما سلف عفا الله عنك .

وتابع رسول الله هديه لنساء قريش ،

وقبل أن ينصرف رسول الله صلوات الله عليه أتته هند وقالت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني ، فهل عليّ من حرج إذا أخذت من ماله بغير علمه ؟

قال عليه السلام : خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك .

واطمأن أبو سفيان على مصير هند ، وإن كان قد عتب عليها في نفسه أن وصفته بالبخل أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وحاول أبو سفيان أن يبقى قريباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعله في قربه منه يحتفظ لنفسه بشيء من مجدها السابق وزعامتها الذاهبة ،

وكـذلـك حاول أن يفعل سادة قريش ، فازدحموا على باب رسول الله ، كل يحاول أن يحظى بمقابلته أو حضور مجلسه .

وانتظـر أبـو سفيـان أن يأذن له رسول الله بالمثول بين يديه ، فليس من هو أحق منه بالتقدمة ، أليس هو السيد المطاع في قريش ؟

وأذن رسول الله لأصحابه فدخلوا .

وأذن لأنصاره فدخلوا .

وأذن لفقراء مكة والضعفاء منهم فدخلوا .

وأذن لأفراد القبائل فدخلوا .

وأذن لرؤساء العشائر فدخلوا .

وغلى قلب أبي سفيان غيظاً وغضبا ، فكيف يؤذن لكل هؤلاء ويترك هو دون أن يذكره أحد أو يلتفت لوجوده إنسان .

والتفت يمنة ويسرة فلم يبق أحد ممن حضر باب رسول الله إلا دخل عليه وقضى حاجته سواه !

وهم أبو سفيان بالانصراف ، فإذا ساعي رسول الله يؤذنه بالدخول .

ودخـل أبـو سفيـان على رسـول الله وقـال وهو يحاول أن ينفس من عنف الـضـيـق الــذي ملأ صدره : يا رســول الله ، ما كدت تأذن لي حتى تأذن لحجارة الجلهمتين !

فابتسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : يا أبا سفيان أنت كما قال القائل ؛ كل الصيد في جوف الفرا .

وهـدأت نفس أبي سفيـان ، وقـد رأى أن رسـول الله قدمـه على الناس جميعا لأن حمار الوحش أفضل الحيوانات صيدا .

واستمـر أبـو سفيـان في محاولاتـه التقرب من الرسول ، واستمر الرسول في تألفـه لأبي سفيـان ، فإذا دخـل الايـمان قلب أبي سفيان كفى المسلمين شرّه وتبعه من لا يزال يتابعه في رأيه من قريش .

ورأى أبـو سفيـان في ابنتـه أم حبيبـة خير باب ليـدخل منه إلى القرب من رسول الله ، فكان دائم الزيارةلها ومقصده أن يكون قريباً من رسول الله ، . . .

وبـالـغ رسـول الله في إكـرامـه وتبسط معه ومازحه ، ورأى أبوسفيان من رسـول الله من سعـة الصـدر والحلم ما لم يره من أحـد حتى تكلم في مجلسـه بكلام لم يكن يجرؤ على مثله من قبل .

قال أبوسفيان لرسول الله : والله إن هوإلا أن تركتُك فتركتك العرب إن انتطحت فيك جمّاء ولا ذات قرن !

ويضحك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويقول : أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة ؟ !

ويـدخـل السرور إلى قلب أبي سفيان ، فهويعلم أن رسول الله إذا كان راضياً عنه كناه بأبي حنظلة .



وتأتي الأخبـار من الطـائف بأن هوازن تحشد للمسلمين ، فينهض رسول الله بجيشه الفاتح ويتقدم باثني عشر ألف مقاتل فيهم طلقاء مكة للقاء هوازن .

ويصـــل الجيش الإســـلامي إلى وادى حنـين ويفـاجئـه الاعـداء فيرتـد المسلمون ويثبت رسول الله مع اثني عشر من أصحابه وذوي قرباه .

ويرى أبوسفيان وطلقاء مكة ما حلّ بجيش الاسلام فيستبشرون ، ويقف أبـو سفيـان في نفـر من هؤلاء الطلقـاء يشـاهـدون تراجـع المسلمين فتنطلق ألسنتهم بما تخفي صدورهم ، فقال كلدة بن الحنبل : الآن بطل السحر !

وقال آخر : والله لا يجتبرونها أبدا ...

وقال أبوسفيان : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر .

وساء صفوان بن أمية الجمحي ـ وهو على شركه ما سمعه من أبي سفيان وصحبه ، فالتفت إلى أبي سفيان وقال له غاضباً : بفيك الكثيب يا أبا سفيان ، ثم التفت إلى الآخرين وقال لهم : يملؤكم السرور أن هزمت هوازن قريشاً ، فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب إليّ من أن يربني رجل من هوازن !

ولم يرد أبو سفيان على صفوان ، بل تابع المعركة التي بدأت كفتها تميل لصالح المسلمين ، وأخذت نداءات العباس : يا معشر أصحاب الشجرة يا معشر أنصار الله ورسوله تصل إلى مسامع أبي سفيان وهو يرى كيف يعود المؤمنون إلى ساحة المعركة مستجيبين للنداء هاتفين : لبيك لبيك ... وكيف تنقلب الهزيمة نصرا والفشل نجاحا ...

ولم يتم للطلقاء ما تمنوا ، فقد انجلت المعركة عن آلاف الأسرى وأكداس من الغنائم ، وعندما تيقن هؤلاء الطلقاء بأن الدائرة للمسلمين هرعوا يقدمون التهاني وعيونهم تلمح الغنائم ولسان حالهم يقول : متى يقسم لنا محمد منها ؟ !

وتقدم أبو سفيان حتى غدا قريباً من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو يحرص على هذا القرب حرصه على الرياسة والزعامة ، ورأى أبو سفيان مظاهر النصر تحف برسول الله وعلائم الظفر تكلل جبينه الشريف ، فحسده على ذلك وقال في نفسه : ما أدري بم يغلبنا محمد ؟ فما راعه إلا رسول الله يضرب في ظهره ويقول له : بالله نغلبك !

وأذهلت أبا سفيان المفاجأة ، فقد اطلع رسول الله على ما في نفسه ، ولا يستطيع مع هذا الموقف مكابرة ومعاندة ، فنظر إلى رسول الله نظرة المغلوب على أمره وقال : أشهد أنك رسول الله .

* * *

ترك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غنائم حنين في مكان يقال له الجعرانة ، ثم تقدم لحصار الطائف ، أما المسلمون فقد سرهم أن

يضموا للإسلام بلداً جديدا وقوماً آخرين ، وأما الطلقاء والطامعون من رجال القبائل ممن ضمهم هذا الجيش فقد ساروا كارهين وأطلقوا لأرواحهم عنانها لتربض حول الغنائم وتركوا أجسادهم تسير مع السائرين .

وقاومت الطائف ، ولم يأذن الله في فتحها ، فقد أراد الله لثقيف أن تسلم طائعةً مختارة حتى يكون ذلك أدعى لتوثيق إيمانها بالله ورسوله .

وحاول جماعة من المسلمين أن يدعوا ثقيفاً إلى الاستسلام لرسول الله ، وخشي أبو سفيان أن يفلح المسلمون في احتلال الطائف فتقع نساء من قريش ممن لهن أزواج من ثقيف أسرى ، ومنهن ابنته أمينة (١) ، فتقدم مع المغيرة بن شعبة وجاذب الثقفيين أطراف الحديث وطلب منهم أن يكلم ابنته ونساء قريش فأبين ، وعاد أبو سفيان من محاولته ليجد المسلمين متأهبين لرفع الحصار والعودة إلى الجعرانة حيث تركوا الغنائم .

والتصق أبو سفيان برسول الله ، فقد وصلوا الجعرانة حيث الخير العميم والرزق الوفير ، فإذا كان قد فقد الرياسة فلا أقل من أن يكسب المال الوفير

وشرع رسول الله في توزيع الغنائم ، وأعطى للمؤلفة قلوبهم أكثر من المجاهدين ، فأعطى أبا سفيان مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضة .

وانفتحت شهية أبي سفيان للمال ، فقال : ابني يزيد يا رسول الله .

فأعطى رسول الله يزيد بن أبي سفيان مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضة .

فطمع أبو سفيان بالمزيد ، فقال : ابني معاوية يا رسول الله .

فأعطاه رسول الله مائة من الإبل وأربعين أوقية من الفضة .

عندئذ نظر أبو سفيان إلى رسول الله وقال بإعجاب وامتنان : والله إنك لكريم ، فداك أبي وأمي ، والله لقد حاربتك فنعم المحارب كنت ، ولقد سالمتك فنعم المسالم أنت ، جزاك الله خيرا .



(١) كانت أمينة بنت أبي سفيان عند عروة بن مسعود الثقفي وله منها داود بن عروة ، ويقال إن أم داود هي ميمونة بنت أبي سفيان وكانت عند أبي مرة بن عروة بن مسعود . انظر السيرة النبوية لابن هشام حـ ٤ ص ٩٤

وعاد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى مكة ثم إلى المدينة ، وفيها بدأت الوفود من القبائل تعلن إسلامها ، وجاء وفد ثقيف مسلماً ، فسُر به رسول الله وأكرمه ، وحاول الثقفيون أن يبقوا على معبودهم اللات مع إسلامهم ، ولكن رسول الله أبى ، وحاولوا أن يبقوه سنة . . . أشهرا . . . شهرا واحدا ورسول الله يأبى ، وعندما يئسوا من ذلك طلبوا من رسول الله أن لا يهدموا اللات بأيديهم فرضي ، وأرسل من فوره المغيرة بن شعبة الثقفي وأبا سفيان بن حرب لهدمها •

وعندما دنا الرجلان من الطائف أحب المغيرة أن يقدم أبا سفيان لمقامه وسنّه ، وخشي أبو سفيان على نفسه من بطش ثقيف فأبى ، وترك المغيرة ليذهب وحيدا لإبلاغ ثقيف بعزمه على هدم الطاغية (اللات) وذهب هو إلى ماله بذي الهدم ينتظر ما يرجع به المغيرة .

ودخل المغيرة الطائف وأبلغهم بالذي جاء من أجله ، فحذروه وحاولوا أن يثنوه ، فسخر منهم ، وأرسل إلى أبي سفيان ليحضر هدمها ، وتقدم يحرسه قومه بنو معتب خوفا عليه من غدر ثقيف ، وهوى عليها بالمعول واحدة وثانية وثالثة . . . وانهارت اللات أمام ثقيف •

أما أبو سفيان فقد أخذ يتابع المغيرة وهو يعمل في اللات هدماً ، ونظر إلى ثقيف وهم لا يحركون ساكناً ، ومرت به أطياف العابدين الطائفين بهذا الصنم الكبير ، فتنهد وقال : واهاً لك . . آها لك !

واحتاز المغيرة مال اللات وحليها ، فقد كان فيها مال وحلي كثير ، ثم دعا أبا سفيان وقال له : تعلم أن رسول الله أمرنا بأن نقضي من هذا المال دين عروة بن مسعود والأسود بن مسعود .

قال أبو سفيان : نعم .

قال المغيرة : فدونك فاقضه .

ومارس أبو سفيان سلطة من هاته السلطات التي يتعشقها ، قضى المال ، وانكفأ عائداً إلى المدينة •



واستمـر أبـو سفيـان مشاركاً في الحياة الإسلامية كفرد من أفرادها ، ورأى بعينه كيف تذوب الفوارق بين الأغنياء والفقراء والسادة والعبيد ، وكيف يبني الإسلام مجتمعاً تسوده المودة والمحبة وتنتفي منه الضغائن والأحقاد .

ولعل أبا سفيان الذي جبل على أن يظلم ولا يسأل عن ظلمه وينهب ولا يراجع في فعله قد وجد صعوبة في تفهم المجتمع الجديد ووجد عنتاً في إقناع نفسه بالتخلي عن السعي من أجل السيادة والزعامة والرئاسة ، ولعله فكر كثيرا بالطريقة التي يمكن أن توصل بني أمية لسيادة الأمة الجديدة التي بناها الإسلام .

وتواتي أبا سفيان الفرصة ليجرب حظه في اقتناص الزعامة عندما توفي رسول الله ، ولكن الأحداث تتسارع ويلتفت الناس إلى أبي بكر ويجمعوا على مبايعته .

ويرى أبو سفيان أن الناس منصرفون عن بني أمية لا يذكرونهم في هذا الأمر ، ولا يزكونهم له ، ورأى أن الأمر قد تفاقم بخروج الزعامة من بني عبد مناف إلى بني تيم رهط أبي بكر ، ولم يكن قد استوعب التغييرات الجذرية التي أحدثها الإسلام في مفاهيم السياسة والمجتمع ، أو هو لم يرد أن يستوعبها لتعلقه بسيادة قومه ورأى أن أفضل الطرق لانتزاع الأمر من بني تيم ورده إلى بني عبد مناف تحريضه لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه فإنه لا يقل شأناً في الإسلام عن أبي بكر ، فهرع إلى بيته ووقف على بابه وأنشد :[1]

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم ... ولا سيما تيم بن مرة أو عدي

فما الأمر إلا فيكم وإليكم ... وليس لها إلا أبو حسن علي

أبا حسن فاشدد بها كفّ حازم ... فإنك بالأمر الذي يُرْتجى ملي

ولم يلتفت علي ـ كرم الله وجهه ـ إلى مقولة أبي سفيان ، فانصرف أبو سفيان كاسفاً حزيناً إذ غدت السيادة في بني تيم بن مرة وأفلتت من بني عبد مناف ، ولم يرد أبو سفيان أن ينظر إلى الأمر نظرة إسلامية ، فإنه لم يرد أن

(١) شرح نهج البلاغة حـ ٦ ص ٧ نقلاً عن « شعر المخضرمين » للدكتور يحيى الجبوري ص ٧٠٧

يتفهم الأمر على ما صار إليه ، بل أصر على أن ينظر إلى الأمر نظرة قيصرية كسروية !

ولم يستطـع أبـو سفيـان أن يقنـع بالـذي حدث ، وبقي صدره فائرا يود لو ينقض على الأمــر فيبطله ، ولم يدع الأمــر للأحــلام والأمــاني بل سعى له سعيـه ، فبعـد أن قال ما قالـه لعـلي ولم يجد لديه استجابة تحين الفرصة ليعيد الكـرة ، وعنـدمـا رأى جماعـة من بني عبد مناف مجتمعين فيهم علي والعباس أقبـل عليهم مسـرعـاً وصـرخ بأعلى صوتـه وقد انتفخت أوداجه : إني لأرى عجـاجـة لا يطفئهـا إلا الدم ! يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم ؟ أين المستضعفان ؟ أين الأذلان علي والعباس ؟ ما بال هذا الأمر في أقل حيّ من قريش ؟

ثم تقدم من علي وهو في فورة حماسه وقال له : أبسط يدك أبايعك ، فوالله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجلا .

ولما وجد أبو سفيان علياً لا يستجيب له ، قال متمثلاً بشعر المتلمس (١)

ومــن يقــيـم على خسـف يراد به   إلا الأذلان عير الحــيّ والــوتــد
هذا على الخسف معكـوس برمتـه   وذا يُشــجُّ فلا يرثــي له أحــد

فزجـره علي ـ رضي الله عنــه ـ وقــال له : والله إنّك ما أردت بهذا إلا الفتنة ، وإنك والله طالما بغيت للإسلام شراً ، لا حاجة لنا في نصيحتك .

(١) الكامل في التاريخ لابن الاثير حـ ٢ ص ٣٢٦

مع أبي بكر الصديق

لم يكف أبو سفيان عن التحريض على أبي بكر ، فقد كان خروج الأمر من بني عبد مناف يقلقه ويزعجه ويقض مضجعه ، ولما أكثر أبو سفيان من ذلك ، وبلغ أبا بكر عنه أمورا وأمورا ، أرسل إليه من أحضره ، فلما مثل بين يديه أقبل يؤنبه ويرفع صوته بالتأنيب والتقريع ، وأبو سفيان لا يكف عن تملقه والتذلل له والاعتذار إليه •

وفي هذه الأثناء أقبل أبو قحافة لزيارة ابنه أبي بكر ، فلما سمع صياحه قال لقائده : على من يصيح ابني ؟

قال له قائده : على أبي سفيان بن حرب •

فأسرع أبو قحافة حتى دخل على ولده ودنا منه وقال له مؤنباً : أعلى أبي سفيان ترفع صوتك ياعتيق الله وقد كان بالأمس سيد قريش في الجاهلية ! لقد تعديت طورك وجزت مقدارك !

وتبسم أبو بكر ومن حضر المجلس من المهاجرين والأنصار ، وقال له : يا أبت ، إن الله قد رفع بالإسلام قوماً وأذل به آخرين •

* * *

هل أدرك أبو سفيان الوضع الجديد ؟ هل اقتنع أبو سفيان بأن حمية الجاهلية وتفاخرها بالأنساب قد انتهى وحل محله ميزان آخر يزن الناس بمدى ما قدموه ويقدمونه للإسلام والمسلمين ؟

لا نشك أن أبا سفيان قد فهم الوضع الجديد وإلا ما كان تذلل لأبي بكر واعتذر له ، ولا نشك أيضاً أنه لم يقنع بأن يفلت الأمر من بني عبد مناف إلى سواهم من قبائل قريش وربما إلى قبائل من خارج قريش ، وهو لا يزال يمني النفس بعودة الأمر إلى بني عبد مناف ليكون لبني أمية منه نصيب كبير ...

لهذا وذاك لم يكف أبو سفيان عن أحاديثه التي تنتقد ولاية أبي بكر رغم ما شغل به المسلمون من حروب الردة ، ولم يكف عنه حتى بعد استتباب الأمر للإسلام في الجزيرة كلها واستعداد المسلمين للانطلاق بدينهم إلى آفاق الدنيا.

ويبدو أن أبا سفيان لم يكن مطلعاً على ما يدور في ديوان الخلافة من أمور ، فقد استعد أبو بكر ليرسل جيوشه إلى الشام وكان ممن عينهم على إحدى هذه الجيوش الابن الأكبر لأبي سفيان ، يزيد بن أبي سفيان ...

وخرج رجل من ديوان الخلافة فإذا بأبي سفيان في جمع من الناس يقول لهم : ما لنا ولأبي فصيل، إنما هي بنو عبد مناف ...

فقال له الرجل : يا أبا سفيان لقد ولى أبو بكر ابنك يزيد على واحد من جيوش الشام .

وصمت أبو سفيان لحظة كأنما أُخذ بما سمع ، فلم يكن يتوقع هذا ، إنما كان يظن أن أبا بكر سيوليها بني تيم رهطه ، وأفاق أبو سفيان على الرجل وهو يقول له : ماذا تقول يا أبا سفيان في توليه أبي بكر لابنك يزيد ؟

قال أبو سفيان وقد وجَد في نفسه رضا وارتياحاً : أقول وصلته رحم !

* * *

هرع أبو سفيان إلى حيث الجيوش تستعد وتتهيأ ، فرأى أبا بكر ينظمهم ويوصيهم ، فتقدم إليه وشكر له تولية يزيد .

وعندما حان انطلاق الجيوش إلى غايتها بدا لأبي سفيان أن يرافق ابنه في درب الجهاد ، فليس هناك ما يدخل السرور على قلبه ويجلب الفخر إلى نفسه من رؤية واحد من بني أمية والياً أو قائدا ، فكيف به وهو يرى ابنه قائداً لجيش من هذه الجيوش المنطلقة لمنازلة أكبر قوة معروفة في ذلك الزمان .

وسار أبو سفيان ممتطياً صهوة جواده محاذياً لابنه يزيد ، ينظر إليه بفخر واعتزاز ، ويرى فيه أمل بني أمية في إعادة المجد والسيادة ، ومما زاده فخرا وملأه رضا قدوم أبي بكر إلى يزيد وإقباله عليه يوصيه ويوجهه ، ويزيد راكب وأبو بكر يمشي حذاءه راجلاً ، وقد سرّ أبا سفيان أن يسمع أبا بكر يقول ليزيد في نهاية اللقاء : اقرئك السلام وأستودعك الله .

وسار يزيد في حملته يقطف النجاح تلو النجاح ويحرز النصر تلو النصر ، وأبو سفيان يزهو بذلك ويزداد زهوا ، إلى أن انتهى الأمر بالجيوش الإسلامية إلى الاجتماع في اليرموك استعداداً للقاء الحاسم مع الروم .

* * *

استعد المسلمون في اليرموك للمعركة الفاصلة استعداد كبيرا ، واهتموا بالاستعداد المعنوي اهتمامهم بالاستعداد المادي أو أشد اهتماما ، فجعلوا المقداد قارئاً يتلو على الجيش المتأهب للنزال سورة الجهاد (الأنفال) ، وجعلوا أبا سفيان قاصاً يمر على كتائب الجند يدعوهم للثبات وإفراغ الجهد في القتال ويذكرهم بأيام الله ، ويذكر لهم ما أعده الله للمجاهدين من أجر وللشهداء من ثواب .

وأخذ أبو سفيان بالتنقل بين الكتائب في نشاط وهمة يعجز عنها كثير من الشباب ، ولكنه وهو ابن السبعين أظهر نشاطاً وحماساً يغبطه عليه أبناء الأربعين . . . ، وعندما دنت ساعة الحسم واقتربت ساعة الالتحام تقدم خطباء المسلمين وفصحاؤهم فخطبوا في الجيش المتأهب خطباً حماسية أشعلت الحماس في نفوس الجند ، فتقدم خالد بن الوليد فخطب الجند ، وتقدم عمرو بن العاص فخطبهم ، وتقدم معاذ بن جبل وخطبهم ، ثم تقدم أبو سفيان فخطب فيهم خطبته الحماسية التالية ، قال : يا معشر المسلمين ؛ أنتم العرب وقد أصبحتم في دار العجم ، منقطعين عن الأهل ، نائين عن أمير المؤمنين وأمداد المسلمين ، وقد والله أصبحتم بإزاء عدو كثير عدده ، شديد عليكم حنقه ، وقد وترتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم ، والله لا

ينجيكم من هؤلاء القوم ولا يبلغ بكم رضوان الله غدا إلا بصدق اللقاء ، والصبر في المواطن المكروهة ، ألا وإنها سنة لازمة ، وإن الأرض وراءكم ، بينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحارى وبراري ، ليس لأحد فيها معقل ولا معدل إلا الصبر ورجاء ما وعد الله فهو خير معوّل ، فامتنعوا بسيوفكم ، ولتكن هي الحصون ·

ثم ثنى عنان فرسه واتجه إلى النساء وفيهن ابنته جويرية ، فوصاهن وحرضهن وقال : من رأيتنه فاراً فاضربنه بهذه الأحجار والعصي حتى يرجع ·

ثم عاد إلى الكتائب واستعرضها بعينه ونادى بأعلى صوته : يا معشر أهل الإسلام ، حضر ما ترون ، فهذا رسول الله والجنة أمامكم ، والشيطان والنار خلفكم ·

ومضى إلى موقفه تحت راية ابنه يزيد ، وازدادت تحركات الجيش ، وبدت بوادر الالتحام تزداد اقترابا وأخذت النفوس تزداد توثباً والمشاعر تزداد التهابا ، فاستفزت الحمية أبا سفيان ، فلم يستطع أن يبقى واقفاً منتظرا ، فانطلق يدور على كتائب الجيش كتيبة كتيبة ، ويقف على كل واحدة منها ويقول : الله الله ، إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وهم ذادة الروم وأنصار الشركِ ، اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك ·

ثم كرّ راجعاً إلى كتيبة ابنه يزيد ، وقبل نشوب القتال توجه له بالنصيحة قائلًا : يابني ، عليك بتقوى الله والصبر ، فإنه ليس رجل بهذا الوادي من المسلمين إلا محفوفاً بالقتال ، فكيف بك وبأشباهك الذين ولوا أمور المسلمين ، أولئك أحق الناس بالصبر والنصيحة ، فاتق الله يا بني ، ولا يكونن أحد من أصحابك بأرغب في الأجر والصبر فى الحرب ، ولا أجرأ على عدو الإسلام منك ·

واشتبك الجيشان ، والتحم الفرسان ، وصمتت الأصوات ، فلم يعد

يسمع إلا صليل السيوف ووقع الرماح وصهيل الخيول ، والتفت أبو سفيان إلى راية يزيد فوجد القتال عندها محتدماً ، فثارت في عروقه الدماء ، واندفع يهتف بأعلى صوته حتى أسمع من في العسكر : الثبات الثبات يا معشر المسلمين . . . يا نصر الله اقترب . . . يا نصر الله اقترب ...

ونظرت نساء المسلمين من مكانهن الذي يشرف على ساحة المعركة ، فوجدت الروم أضعاف المسلمين ، فأخذتهن الحماسة ، واشتقن إلى ممارسة الجهاد بخوض القتال ، فتقدمت نسوة منهن فحاربن ، ونظر أبو سفيان فرأى ابنته جويرية تقاتل ، فسره ما رأى منها ومن صويحباتها ، وأعجبه حماس الجموع ، فأخذ يردد دعاءه : يا نصر الله اقترب . . . يانصر الله اقترب . . . اللهم إن هذا يوم من أيامك . . . اللهم أنزل نصرك على عبادك .

وتقدم أبو سفيان الصفوف وهو لا يزال يردد كلمات الدعوة إلى الجهاد والتضحية ويرفع صوته بالدعاء والتضرع ، فجاء سهم أصاب عينه السليمة ، فقد كانت عينه الأخرى أصيبت في أثناء حصار الطائف (١) ، فتقدم منه أبو حثمة ، جندي من المسلمين ، فانتزع السهم من عينه ، ولكنه فقدها وفقد معها بصره .

وانجلت اليرموك عن نصر حاسم للإسلام وهزيمة منكرة للشرك ، وسرّ أبا سفيان أنه شارك في هذا النصر المبين كما سرّه وزاده فخرا أن ابنه كان واحدا من فرسانها وقائداً من قادتها .

وما كاد الناس يفرغون من أنباء النصر وأحاديثه حتى تسربت إليهم أنباء وفاة أبي بكر وتولية عمر بن الخطاب ، فترحموا على أبي بكر وذكروا له فضله ومقامه ، وسرهم أن يكون خليفته عمر ، فقد علموا جهاده في الاسلام وحرصه على صيانته ورفعة شأنه .

---

(١) روى الزبير عن طريق سعيد بن عبيد الثقفي قال : رميتُ أبا سفيان يوم الطائف فاصبت عينه ، فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : هذه عيني أصيبت في سبيل الله ، قال : إن شئت دعوت فردت عليك وأن شئت فالجنة ، قال : الجنة .

ولكن أبا سفيان لم يتلق النبأ بمثل ما تلقاه عامة المسلمين ، فقد كان يعلم رأى عمر في إسلامه وإسلام بنيه ، وكان يخشى أن يعزل عمر يزيد عن قيادة الجيش ، فقد عزل خالد بن الوليد وهو من هو ، فأسرع يشد رحله ويتوجه إلى المدينة ليكون قريباً من الأحداث فيها •

مع عمر بن الخطاب

وصل أبو سفيان إلى المدينة المنوّرة فوجد أنباء النصر المبين في اليرموك قد سبقته ، ووجد الناس فرحين بالنصر وأشد فرحاً بتولية عمر .

وفي اليوم التالي توجه أبو سفيان للسلام على أمير المؤمنين وتهنئته بالخلافة والنصر ، وجلس على باب الخليفة ينتظر إذنه ، والتفت حوله فوجد إلى جانبه سهيل بن عمرو ومجموعة من سادة قريش ، ووجد أيضاً مجموعة من المسلمين الأوائل ممن أصابهم شرّه في أول الدعوة منهم صهيب بن سنان وبلال بن رباح .

وخرج آذن عمر فأذن لصهيب ، ثم أذن لبلال ، ثم أخذ يأذن لأهل بدر ثم لمن حضر أُحداً ثم لمن شارك في الخندق . . . وكانت هذه مراتب الناس عند عمر ، فالتهب الغيظ في صدر أبي سفيان ، وضاقت عليه رحبة المجلس ، ولم يستطع أن يكتم ما في صدره من غيظ وما في نفسه من ضيق ، فالتفت إلى من حضر من شيوخ قريش وقال : ما رأيت كاليوم قط ، إنه ليُؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يُلتفت إلينا .

فقال سهيل بن عمرو ، وقد رأى ما أحدثته كلمة أبي سفيان من أثر في نفوس الحاضرين من سادة قريش : أيها القوم ، إني والله قد أرى الذي في وجوهكم ، فإن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم ، دعي القوم ودعيتم

فأسرعوا وأبطأتم ، أما والله لما سبقوكم به من الفضل أشدُّ عليكم فوتاً من بابكم هذا الذي تنافسون فيه (١).

وأدرك أبوسفيان ما وقع فيه من خطأ ، فصمت إلى أن خرج آذن عمر فأذن له ، فدخل على عمر ، فهش له ، وأجلسه على فراش أحضره لساعته ، وكان قد خصصه لجلوس العباس بن عبد المطلب وأبي سفيان بن حرب ، وكان عمر يقول مبرراً ذلك التكريم : هذا عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا شيخ قريش .

وهنأ أبوسفيان عمر بالخلافة ، وحدثه بحديث اليرموك ، فسمع من عمر ماسرّه وطمأنه وبخاصة عندما أعلمه أنه ولى ابنه يزيد على فلسطين

اطمأن أبوسفيان على نصيب بني أمية في دولة الإسلام ، وذهب من نفسه ما وسوست له به من عزل يزيد ، فقد زاد عمر في إكرامه وما بدله ولا غيره ، وشجع هذا الاطمئنان أبا سفيان للانتقال إلى مكة ليخلد إلى الراحة فيها بعد أن كف بصره وتقدمت سنه .

* * *

استقر أبوسفيان في مكة ، فأخذ يصلح من بيوته ما يرى أنه بحاجة لإصلاح ، وأخذ يزيد في بناء ما يرى أنه بحاجة لزيادة في البناء ، كما وجه اهتمامه لإصلاح ورعاية ما كان يرى أنه حقه من أرض وزرع ، وكان أحد من الناس لا يجرؤ على اعتراضه أومنازعته ، فاعتدى على الحق العام كما اعتدى على بعض حقوق العباد . . .

وعندما حج عمر بن الخطاب هرع الناس إليه يشكون ما يفعله بهم أبو سفيان ، فجاءه عتبة بن فرقد السلمي ، وقال له : يا أمير المؤمنين إن أبا سفيان ينازعنا حقنا في ردم الحذاءين ، فقد وقف على الردم وضرب برجله

---

(١) ولسهيل بن عمرو مع أبي سفيان موقف مشابه في مكة ، فقد جاء في البصائر والذخائر ، المجلد ٢ قسم ٢ ص ٢٠٧ : لما ناح أهل مكة لوفاة النبي ـ ﷺ ـ استبشر أبوسفيان بن حرب ، فقام سهيل بن عمرو العامري فقال : والله إني أعلم أن هذا الدين سيمتد امتداد الشمس في طلوعها إلى غروبها ، فلا يغرنكم هذا من أنفسكم ـ وأشار إلى أبي سفيان ـ ، فإنه يعلم من هذا الأمر ما أعلم ، ولكن حسد بني هاشم جاثم على صدره .

وقال : سنام الأرض ، إنّ لها سناما ، يزعم ابن فرقد أني لا أعرف حقي من حقه ، له سواد المروة ولي بياضها ، ولي ما بين مقامي هذا إلى تجني (ثنية قريبة من الطائف) !

قال عمر بن الخطاب : إن أبا سفيان لقديم الظلم ، ليس لأحد إلّا ما أحاطت عليه جدرانه .

وقام عمر لبعض حاجته في المعلاة (موضع بمكة) فمرّ بأبي سفيان يهنأ جملاً له ، فنظر إلى أحجار قد بناها أبو سفيان شبه الدكان في وجه داره يجلس عليه في فيء الغداة ، فقال له عمر : يا أبا سفيان ، ما هذا البناء الذي أحدثته في طريق الحاج ؟

قال أبو سفيان : دكان نجلس عليه في فيء الغداة .

قال عمر : لا أرجع من وجهي هذا حتى تقلعه وترفعه .

فبلغ عمر حاجته ، فلما عاد وجد الدكان على حاله ، فقال لأبي سفيان : ألم أقل لك لا أرجع حتى تقلعه ؟ !

قال أبو سفيان : انتظرت يا أمير المؤمنين أن يأتينا بعض أهل مهنتنا فيقلعه ويرفعه .

فقال عمر : عزمت عليك لتقلعنه بيدك ولتنقلنه على عنقك .

فلم يراجعه أبو سفيان ، ونفذ أمره وعمر ينظر إليه ، فلما أنتهى أبو سفيان منها استقبل عمر القبلة وقال : الحمد لله الذي أعز الإسلام وأهله ، عمر بن الخطاب رجل من بني عدي بن كعب يأمر أبا سفيان سيد بني عبد مناف بمكة فيطيعه ..

وصمت أبو سفيان فلم يتكلم فإنه يدرك أن عمر يأمر وينهى بالإسلام الذي ألغى موازين ووضع بدلاً منها أخرى غيرها ، ولولا ذلك لكان معه شأن آخر .

ونظر عمر وهو منصرف في وجه أبي سفيان فقرأ في تعبيراته عدم الرضا ، فعرف أن أبا سفيان لم يروض نفسه بعد على الخضوع لموازين الحق والعدل ،

وخشي إن هو ترك مكة قبل أن يروضه أن يظلم أهلها ويعتدي على حقوقهم ، فلا يزال كثير من أهل مكة ينظرون إلى أبي سفيان نظرتهم إليه قبل أن يسلموا ويسلم ، فهم لا يردون عليه ظلمه ولا يقفون في وجهه إذا اعتدى ، لهذا كله عزم على أن يعاود الكرة عليه حتى يذعن للحق والعدل ...

وعندما خلا مجلس عمر إلا من أبي سفيان قال له : يا أبا سفيان : انهض بنا فإني أريد أن تسير معي .

وسارا حتى وصلا موضعاً بمكة كثير الحجارة قريباً من منزله ، فقال له عمر : يا أبا سفيان خذ هذا الحجر من ههنا وضعه ههنا ، فقال : والله لا أفعل .

قال عمر : والله لتفعلن .

قال أبو سفيان : والله لا أفعل .

فعلاه عمر بالدرة ، وهند ترى وتبصر ما يفعله ، وقال : خذه لا أم لك فضعه ههنا ، فإنك - ما علمتُ - قديم الظلم .

عند ذلك اندفعت هند - زوجة أبي سفيان - وقالت بحدة لعمر : لرب يوم لو ضربته لاقشعرّ بطن مكة .

قال عمر : أجل .

ولم يطل هذا الجدل بين هند وعمر إذ تقدم أبو سفيان فأخذ الحجر ووضعه حيث قال عمر .

عندئذ استقبل عمر القبلة وقال : اللهم لك الحمد إذ لم تمتني حتى غلبت أبا سفيان على رأيه وأذللته بالإسلام .

فاستقبل أبو سفيان القبلة وقال : اللهم لك الحمد إذ لم تمتني حتى جعلت في قلبي من الإسلام ما ذللت به لعمر .

وترك عمر أبا سفيان لهند ، وعاد إلى حيث ينزل بمكة ، يصرف شؤون الناس وينظم الحجيج ، ولما انتهى من ذلك كله حزم أمره للعودة إلى المدينة

مقر الخلافة .

وبينا عمر يتأهب للمسير جاءه رجل من بني سليم وقال له : يا أمير المؤمنين أقطعني خيف الأرين حتى أملأه نخلا .

قال عمر : نعم

وبلغ الأمر أبا سفيان فقال : دعوه فليملأه ثم لينظر أينا يأكل جناه !

فلما بلغ السليمي ما قاله أبو سفيان تركه .

وهكذا استمر أبو سفيان في مكة مسموع الكلمة مرهوب الجانب ، لا يخشى أحدا سوى الخليفة في المدينة ...

وجاءت الأخبار بتولية يزيد على دمشق ، فسر أبو سفيان ، وقرر أن يغادر مكة ويسكن المدينة بالقرب من الأحداث لعله يشارك فيها أو يؤثر في مجراها .



استقر أبو سفيان في المدينة ، يرقب الأحداث ، ويترقب الأخبار وبخاصة تلك الأخبار القادمة من دمشق حيث يزيد ابنه أميرا عليها ، وكان مما يسره ويثلج صدره هذه الأخبار التي يحملها البريد ويتناقلها القادمون عن أعمال يزيد الحربية وبخاصة حملته على قيسارية وحصاره لها واستسلامها له ، فكان أبو سفيان يحدث بذلك كل من زاره في مجلسه في داره التي أصبح يكثر من ملازمتها لكبر السن وفقد البصر .

ويبدو أن أحوال أبي سفيان المادية لم تكن سارة ، فقد ألجأته الحاجة لأن يدفع امرأته هند إلى الاقتراض من بيت المال مبلغاً تتجر فيه .

وذهبت هند إلى عمر تطلب منه أن يسمح لها بالاقتراض من بيت المال مبلغاً تتجر فيه ، فأقرضها أربعة آلاف درهم على أن تضمنها فقبلت .

ويبدو أن هند قد اتجرت في مالها إلى الشام حيث ابن زوجها يزيد (١) أميرا ، ويبدو أنها لم تستفد شيئاً من يزيد ، فقد كان حريصاً أن يؤدي الأمانة التي أوكلت إليه كما أمر الله ورسوله ، فعادت من هناك تشكو

(١) أمه زينب بنت نوفل من كنانة

الخسارة في تجارتها ...

ولما علم عمر بعودتها أرسل يستنجزها ما وعدت به من سداد الدين ، فجاءت إليه واعتذرت بالخسارة ، فقال لها عمر : لو كان مالى لتركته ، ولكنه مال المسلمين ، وهذه مشورة لم يغب عنها أبو سفيان .

وترك عمر هند تذهب إلى بيتها ، وأرسل من جاءه بأبي سفيان فحبسه حتى وفت هند دينها فأطلقه .

لم يغضب أبو سفيان لأنه عرف عمر ، فهو لا يخشى في الله لومة لائم ، ولا كبير عنده إذا كان الأمر يخص الإسلام وشريعته والدين وأتباعه ، وهو يعرف مدى احترام عمر لمقامه ، فقد جربه من قبل ، ولم يطل به الوقت حتى جاءت التجربة لتؤكد هذا الاحترام .

فقد حدث أن تخاصم عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان في مجلس عمر بن الخطاب ، فلطم عمرو معاوية ، فقال عمر : تالله ما رأيت رجلاً أسفه منك ، يا معاوية الطمه .

قال معاوية : إن لي أميرا لا أقضي الأمور دونه .

فأرسل عمر إلى أبي سفيان ، فلما رآه قادماً ألقى له وسادة وقال للحاضرين : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه .

ثم التفت إلى أبي سفيان وقال له : هذا عمرو لطم ابنك معاوية ، وأمرت معاوية أن يقتص منه فأبى أن يفعل إلا عن مشورتك .

قال أبو سفيان : ألهذا بعثت لي ، أخوه وابن عمه وقد أتى غير كبير ، وقد وهبت له ذلك .

وسرت في المجلس همسات تطلق الإعجاب بموقف أبي سفيان ، وخجل عمرو من فعلته واعتذر عنها .

في السنة الثامنة عشرة من هجرة المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ صدم أبو سفيان بوفاة ابنه يزيد بالطاعون ، وخشي على بني أمية أن تضيع منهم

الرئاسة ، فقد كانت آمال أبي سفيان معقودة على ابنه يزيد ...

وقد فرّج عن أبي سفيان همه أمر عمر بن الخطاب بتولية معاوية مكان يزيد ، بل إن سروره كان بتولية معاوية أشد من ذلك السرور الذي انتابه بتولية يزيد ، وقد ساد السرور البيت السفياني اذ كان معاوية عبشمياً (١) أبا وأما ، فأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس .

* * *

لم يكف أبو سفيان عن إضمار رغبته وشوقه وتلهفه على أن يصير الأمر كله إلى بني أمية ، ولم يكن ليفوت فرصة تلوح إذا كانت تقربه من هدفه وتدنيه منه ، بل نراه في أحد المواقف يتجاوز الحدود الشرعية ويندفع على مسمع من واحد من كبار الصحابة فيدعي نسب رجل بانت عليه مخايل الذكاء والنجابة والعبقرية .

روي أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بعث زياد بن أبيه في إصلاح فساد وقع في اليمن ، فلما رجع خطب خطبة لم يسمع الناس مثلها ، فقال عمرو بن العاص ، وكان حاضرا ، : لله هذا الغلام ، لو كان أبوه قرشياً لساق العرب بعصاه ! (٢)

فقال أبو سفيان ، وكان يجلس إلى جانب علي ـ رضي الله عنه ـ : والله إني لأعرف أباه ومن وضعه في رحم أمه !

فلما سمع علي ـ كرم الله وجهه ـ كلام أبي سفيان عرف تلميحه بأبوته لزياد ، ولكنه أراد أن يسمع ذلك من أبي سفيان صراحة دون تلميح ، فقال له : ومن هو أبوه يا أبا سفيان ؟

قال أبو سفيان : أنا أبوه !

فقال علي : اسكت يا أبا سفيان ، فإنك لتعلم أن عمر لو سمع هذا القول منك لكان إليك سريعا !

---

(١) عبشمياً : من بني عبد شمس ، والنسبة إلى عبد شمس : عبشمي

(٢) في رواية أن زيادا كان كاتباً لأبي موسى الأشعري وأن أبا موسى ارسله في امر إلى عمر ، فخطب زياد خطبة بليغة وعند ذلك قال عمرو كلمته المشهورة هذه .

فقام أبو سفيان وخرج من مجلس عمر ، وعندما أصبح في مأمن من سماع عمر قال :

أما والله لولا خوف شخص يراني يا علي من الأعادي
لأظهر أمره صخر بن حرب ولم تكن المقالة عن زياد
ولكني أحاذر حيف كف لها نقم ، ولفتي عن بلادي
فقد طالت مجاملتي ثقيفاً وتركي فيهم ثمر الفؤاد

وكان عمر يعلم تجاوزات أبي سفيان ، وكان لذلك عليه شديدا ، وكان عمر لا يكف عن مراقبة أبي سفيان وتسقط أخباره حتى لا يحدث أمرا يضر بالمسلمين ، وعمر لم يكن ليتساهل في أمر يضر بمصالح المسلمين مهما كان يسيرا •

مما يدل على صدق ما ذهبنا إليه من شدة ملاحقة عمر لأبي سفيان ومن دقة مراقبته ما كان يفعله معه كلما زار ابنه معاوية والي الشام .

ففي واحدة من هاته الزيارات عاد أبو سفيان موقرا بالتحف والهدايا ، وانسل إلى بيته وخبأ ما جاء به ، ثم ذهب إلى عمر فسلم عليه ، فقال له عمر : أجْدِنا يا أبا سفيان .

قال أبو سفيان : ما أصبنا شيئا فنجديك .

وطلب عمر من أبي سفيان أن ينزع خاتمه ، ففعل ، ثم دعا عمر أحد سعاته وقال له : اذهب إلى هند وقل لها : يقول لك أبو سفيان ؛ انظري إلى الخرجين اللذين جئت بهما من عند معاوية فأحضريهما .

وذهب الساعي إليها وقال لها ما أوصاه به عمر وأعطته ما طلب بإمرة الخاتم •

وعندما أحضر الساعي الخرجين ، وجد فيهما عشرة آلاف درهم ، فضمها عمر إلى بيت المال •

مع عثمان بن عفان

لا شك أن أبا سفيان تابع أهل الشورى الذين رشحهم عمر للخلافة باهتمام بالغ ، ذلك لأن واحداً منهم من بني أمية هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية ، ولا نشك بأن أبا سفيان كان يحرض على اختيار عثمان ، ونحن لا نزعم أنه كان ذا تأثير على أهل الشورى ، ولكننا نرجح أنه كان ذا تأثير على رهطه وعلى جماعة من قريش لا زالت تتذكر زعامته السابقة في مكة ولا زالت تكن لها بعض الولاء ٠

ولنا أن نتصور النشاط الجم الذي بذله أبو سفيان في هذا الشأن رغم كبر سنه وفقد بصره ، ولنا أن نتصور أيضاً الانفعالات المتابينة والتوتر الشديد الذي عاناه نتيجة لتأرجح الميزان بين علي وعثمان ، ولنا أن نتصور أخيرا مدى الفرحة التي غمرته والسعادة التي حفته عندما أعلن أهل الشورى اتفاقهم على أن يخلف عثمان بن عفان عمر بن الخطاب في خلافة المسلمين ٠

وتدفق الناس على ديوان الخلافة لتهنئة عثمان ـ رضي الله عنه ـ ، ومضى أبو سفيان مع غلامه الذي لم يفارقه منذ فقد بصره حتى وقفا على باب عثمان ، فقال الغلام لسيده : أندخل يا أبا سفيان ، فإني أرى الديوان مزدحماً يغص بالمهنئين ؟

ولم ينتظر أبو سفيان غلامه حتى يتم كلامه ، فدخل المجلس مسرعاً لا يدري الناظر إليه أيقوده غلامه أم يقود غلامه ، وجلس في صدر المجلس

حيث أفسح له النـاس مكاناً ، وجلس يستمع إلى ما يقوله الناس لعثمان من كلمات الـود والمحبـة ، فقـد كان عثـمان رضي الله عنه محبوباً ، وكان يحتل في قلوب القـرشيـين مكـاناً لا ينازعه فيه أحد حاشا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى ضرب الناس في ذلك المثل فقالوا : أحبك الرحمن حب قريش لعثمان .

ولما أحس أبو سفيان بانصراف عامة الناس ، وشعر أن من بقي في المجلس إنـما هم خاصـة عثـمان ، هم بالكلام ولكنه قبل أن ينطق أحب أن يتأكد من الحـاضـرين ، أكلهم من بني أميـة أم فيهم من غيرهـم ، فقال : أفيكم أحد من غيركم ؟

قالوا : لا

قال : يا بن عفـان ، هنيئاً لك ، لقـد صارت إليـك الخـلافـة بعـد تيم وعدي ، فأدرها كالكرة ، واجعل أوتادها بني أمية ، فإنما هو الملك !

ساء عثـمان ما سمعـه من أبي سفيـان ، فانتهـره وقـال له : قم عني . . . وأغلظ له في القول .

ولكن ابتسامة علت وجه أبي سفيان ، وبدا عليه الارتياح وكأنه يتلقى من عثـمان كلمات الإطـراء والمـديـح ؛ ثم التفت إلى من حضر من بني أمية وقال لهم : وأنتم يا بني أمية تلقفوها تلقف الكرة ، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة . . .

وعـاد عثـمان ـ رضي الله عنه ـ إلى انتهاره والإغلاظ له ، فقام بعض من حضـر المجلس وأخـرج أبـا سفيـان ، ولكن بعـد أن قال كلمته التي انتظر أن يقـولهـا طويـلا ، وبعـد أن وقعت كلماتـه في قلوب بني أميـة موقعاً مكينا حتى أصبحت فيها بعد دستورهم الذي يسيرون عليه ويسوسون به ويديرون الأمر بموجبه !

ويبدو أن الشيخوخة أقعدت أبا سفيان عن الحركة فلم يحاول زيارة عثمان في ديـوانـه سوى مرة واحـدة ، ويبدو أن عثمان لم يكن يرحب بزيارته لما سمعه

منه من كلام في تفضيل عشيرته وأسرته ومالمسه فيه من أطماع في دولة الإسلام ومن رغبة جامحة بأن يجعلها كسروية قيصرية ...

وأطال أبو سفيان الانتظار بباب عثمان ، فكان يؤذن لمن يرى أنهم دونه وأقل شأناً منه ، ويبدو أن المحاولات التى بذلها مع آذن عثمان لم تفلح في إقناع الخليفة للسماح له بالدخول ، فقد قال له أحد الحاضرين : أرى أن الخليفة يحجبك يا أبا سفيان وأنت سيد قريش ورأس بني أمية .

قال أبو سفيان : لا عدمت من قومي من إذا شاء حجبني !

وسُمع أبو سفيان في اليوم التالي وهو يردد البيتين التاليين تأثرا مما أصابه على باب عثمان : (١)

قد أطلنا بالباب أمس القعودا وجفينا به جفاءً شديدا
وذممنا العبيد حتى إذا نحن بلونا المولى عذرنا العبيدا

* * *

لم يطل بأبي سفيان الأجل ليرى تتابع الأحداث التي أدت بابنه معاوية والي الشام ليصبح خليفة للمسلمين ، وأغلب الظن أن أبا سفيان كان يتوق لأن يرى لبني أمية شأناً وأثراً في دولة الإسلام ، ولكننا لا نظن أن خياله قد جمح به حتى يصل به التوق إلى أن يرى بخياله دولة لبني أمية تسود العالم لما يقرب من مائة عام ، وإن كان هو القائل لبني أمية : ما زلت أرجوها لكم ....

وفي السنة الثامنة من خلافة أمير المؤمنين ذي النورين عثمان بن عفان توفي أبو سفيان عن ثمانية وثمانين عاما وحُمل جثمانه إلى المسجد ، وصلى عليه عثمان - رضي الله عنه - ثم أودعه ذوو قرباه ومن حضر جنازته من المسلمين مثواه الأخير في مقبرة البقيع .

---

(١) البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدي . المجلد الثاني . القسم الأول ص ٢٦٧

المصادر والمراجع

١ - أبو حيان التوحيدي ، البصائر والذخائر ، ٤ أجزاء ، الكويت : دار الكتب الثقافية ، ١٩٦٤ م .
٢ - أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ٦ أجزاء ، بيروت : دار الكتاب اللبناني (تهذيب ابن واصل الحموي) .
٣ - أحمد السباعي ، تاريخ مكة ، ط ٣ ، جزءان ، مكة المكرمة : دار قريش .
٤ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، الإصابة في تميز الصحابة ، ٤ أجزاء ، بيروت : مؤسسة الرسالة .
٥ - أحمد بن علي القلقشندي ، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، القاهره : دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .
٦ - أحمد بن يحي البلاذري ، أنساب الأشراف ، القاهره : دار المعارف ، ١٩٥٩ م .
٧ - اسحق بن إبراهيم الفارابي ، ديوان الأدب ، ٤ أجزاء ، القاهرة : مجمع اللغة العربية ، ١٣٩٤ هـ .
٨ - إسماعيل بن كثير ، السيرة النبوية ، ٤ أجزاء ، بيروت : دار المعرفة ، ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .
٩ - جابي زادة فهمي ، حُسن الصحابة في شرح أشعار الصحابة ، القاهرة ، ١٣٢٤ هـ .

١٠ - حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي ، ٣ أجزاء ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧ م ٠

١١ - شمس الدين الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، جزءان ، القاهرة : دار المعارف ٠

١٢ - عباس محمود العقاد ، عبقرية محمد ، القاهرة : دار الهلال ٠

١٣ - عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي ، أمالي الزجاجي ، القاهرة : المؤسسة العربية الحديثة ، ١٣٨٢ هـ ٠

١٤ - عبد الرحمن بن عبدالله السهيلي ، الروض الأنف ، ٤ أجزاء ، بيروت : دار المعرفة ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م ٠

١٥ - عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، الشعر والشعراء ، بيروت : دار الثقافة ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م ٠

١٦ - عبد الملك بن محمد الثعالبي ، لطائف المعارف ، القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ٠

١٧ - عبد الملك بن هشام المعافري ، السيرة النبوية ، ٤ أجزاء ، بيروت : دار الجيل ، ١٩٧٥ م ٠

١٨ - علي بن أبي الكرم (ابن الأثير) الكامل في التاريخ ، ١٣ جزءا ، بيروت : دار صادر - دار بيروت ، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م ٠

١٩ - علي بن الحسين بن علي المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جزءان ، القاهرة : كتاب التحرير ، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م ٠

٢٠ - علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي ، أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر ، ط ٣ ، بيروت : دار الفكر ، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٣ م ٠

٢١ - مجموعة من المستشرقين ، دائرة المعارف الإسلامية ، ٧ أجزاء ، القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ٠

٢٢ ـ محمد أحمد جاد المولي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، علي محمد البجاوي ، قصص العرب ، ٤ أجزاء ، القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م .

٢٣ ـ محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ١٣ جزءا ، بيروت : دار الكتاب اللبناني .

٢٤ ـ محمد حسين هيكل ، حياة محمد ، ط ٧ ، القاهرة : دار القلم .

٢٥ ـ محمد حميد الله الحيدر أبادي ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، ط ٣ ، بيروت : دار الإرشاد ، ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م .

٢٦ ـ محمد بن سعد ، الطبقات الكبرى ، ٩ أجزاء ، بيروت : دار صادر .

٢٧ ـ محمد طاهر درويش ، الخطابة في صدر الإسلام ، ط ٢ ، جزءان ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٨ م .

٢٨ ـ محمد بن عبد الله الأزرقي ، أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار ، بيروت : دار الأندلس ، ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م .

٢٩ ـ محمد بن علي بن طباطبا (ابن الطقطقي) .الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، بيروت : دار صادر ، ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٦٠ م .

٣٠ ـ محمد بن يزيد المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، القاهرة : دار نهضة مصر .

٣١ ـ المصعب بن عبدالله الزبيري ، نسب قريش ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٣ م .

٣٢ ـ منير محمد الغضبان ، معاوية بن أبي سفيان ، دمشق : دار القلم ، ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م .

٣٣ ـ يحيى الجبوري ، شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ، ط ٢ ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م ٠
٣٤ ـ يوسف بن عبدالله بن عبد البر النمري ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، ٤ أجزاء ، بيروت : مؤسسة الرسالة ٠

الفهرس

للمؤلف

١ ـ شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث (٩ أجزاء) .
٢ ـ أناشيد الدعوة الإسلامية ـ المجموعة الأولى ـ والكتابان بالاشتراك مع الأستاذ حسنى أدهم جرار .
٣ ـ فدائيون من عصر الرسول .
٤ ـ والله يعصمك من الناس(عرض تاريخي أدبي لمحاولات اغتيال الرسول) .
٥ ـ أبو سفيان بن حرب ، من الجاهلية إلى الإسلام .
٦ ـ شعراء معاصرون من الخليج والجزيرة العربية .

كتب تحت الإعداد

١ ـ شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث ، الجزءان العاشر والحادي عشر .
٢ ـ أناشيد الدعوة الإسلامية . . المجموعة الثانية .
٣ ـ نقائض الشعر في عصر الرسول .

من مطبوعات
مؤسسة الشرق للنشر والترجمة

(١) قطر بلاد التقدم والرخاء / إعلامـي (تسع لغات) .
(٢) المدخل إلى الرياضيات الحديثة / د . قيس الوهابي (العربية) .
(٣) دراسة عن العلاقات القطرية البريطانية ما بين عامي ١٩١٤ - ١٩٤٥ م / يوسف العبدالله (الإنجليزية) .
(٤) الاسلام وأزمة الحضارة الإنسانية المعاصرة في ضوء الفقه الحضاري / عمر بهاء الدين الأميري (العربيه) .
(٥) التفاضل والتكامل / د . قيس الوهابي (العربيه) .
(٦) فن الكاريكاتير (العربية والانجليزية) .
(٧) مشروع دينا / د . قيس الوهابي (العربية) .
(٨) أبو سفيان بن حرب من الجاهلية إلى الاسلام / أحمد الجدع (العربية) .
(٩) دراسة حول اللغه اليوجاريثيه القديمة في بلاد الشام وعلاقتها باللغة العربية / لؤي عجّان (الإنجليزية والفرنسية) .

تحت الطبع

(١) أبحاث خليجية / للأستاذ أحمد العناني / جزءان (العربية) .
(٢) شعراء معاصرون من الخليج والجزيرة العربية / أحمد الجدع (العربية) .
(٣) صفحات . . نفحات . . خواطر . . ذكريات . . وتجليات / عمر بهاء الدين الأميري (العربية) .
(٤) القوة الخفيه / د . قيس الوهابي (العربية) .

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية
١١٢
١٩٨٣



ت : ٤١٨٣٢٩ ، ٤١٢٠٩٢
تلكس : ٤٧١٥ د هـ
ص . ب : ٤٢٤٤ ، الدوحة ـ قطر